

عندما يحب الرجل

مجموعة قصصية

سارة الجزار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

الجزار ، سارة .

عندما يحب الرجل : مجموعة قصصية / سارة الجزار . —

القاهرة : المكتب المصري الحديث، ٢٠١٣ . ٩٦ ص؛ ٢٠ سم .

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٠٩ ٢٤٧٥

١- الصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣،٠١

بتاريخ ٢٠١٣/١١/٢٧

رقم الايداع ٢٠١٣ / ٢٢١٠٦

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

إهداء إلى أعز انسان في حياتي

إلى من لا يعوضه أحد

إلى من افتقدته ، وافتقده وسأفتقده متى حييت

إلى كل معاني الحب والحنية والتضحية

إلى أبي حبيبي وروحي وحياتي

أهدي إليك كتابي : أقل ما يمكن أن أهبه لك

قطار الذكريات

حاولت أن تتكلم ولكن الكلمات قد ضاعت وسط زوبعة
من البكاء قد عصفت بها ... ثم استجمعت قواها وقالت لي
في صوت متهدج وأنفاس متحشجة: "إنني بالفعل أحتاج
لصديق أسر له بخيئة نفسي وألقي إليه ببعض ما يعتمل في
صدرى، وأرى أنك الشخص الذي أردته بعينه لاسيما أنني
لن ألقاك بعد اليوم، وبذلك لن أتذكر ما قلته معك، ولن
أجد ما يجعلني اندم على ما أفصحت به..! لم أجيب ولم
أعلق؛ فقد كان الفضول يملكني ولم يكن لي من أمنية في
ذلك الوقت سوى أن أعرف سر حزن هذه الفتاة الرقيقة !!

أرسلت مفاصل الباب صريرًا وأنا أفتحه فتحت
واستغرق بي المقام ... جلست ... أضجعت في المقعد اللين
الوثير ووضعت ساقًا على ساق ... وبعدها اعتدلت في
جلستي وأرحت نفسي ... لمحتها ... لمحت تلك الفتاة
الجميلة تجلس أمامي ... وقد التحفت بملابس سوداء لا
تظهر شيئًا إلا وجهها ... وقد كان ذلك كافيًا بالنسبة لي ...
شعرت وأنا أنظر إلى وجهها الأبيض الملائكي وإلى عينيها
الواسعتين الجميلتين وإلى حاجبيها المرفوعتين وإلى شفتيها
المضمومتين اللذنين يقطر منهما السحر والشهد أنني أمام
ملك طاهر جميل لا يمكن أن يتواجد بيننا أبدًا في هذه الدنيا
... وكلما زدت إلى وجهها النظر كلما وجدت به حسنًا جديدًا.
ظللت محققًا النظر إلى وجهها الصافي وإلى عينيها الجميلتين
برهة من الوقت ... وقد كانت تنظر من نافذة القطار ... كنا
نجلس في عربة مكيفة الهواء في القطار السريع المسافر من
الإسكندرية إلى القاهرة، يحيط بنا جو من الألفة والمودة
والحب وكأنني أعرفها منذ زمن سحيق ... سرحت في

وجھها حتى لمحت في عينيها طبقة لامعة من دمع مترقرق ...
تُرى أية قصة يمكن أن نجدها في حياة هذه المرأة الآمنة
الطاهرة الرقيقة ... وطال الصمت، حتى قررت أن أتحدث
إليها ... قاطعت خلوتها قائلاً:

"-الوقت يمر طويلاً من الإسكندرية إلى القاهرة ... و
أرى أنني بحاجة إلى أحد ما أحدثه ويحدثني، ولقد لمحت في
قسما وجهك حزن دفين ... أيمكن أن تعتبريني صديقاً
وتفضين لي بما في داخلك ... ثم سادت بيننا فترة صمت
طويلة خُيل إلى فيها أنني أشعر بدقات عقارب الساعة
واسمعها ... ثم طال الصمت وطالت نظرتي إليها ...
ورأيتها قد أطلقت من صدرها زفرة حارة ... ثم التفتت
إلى ... حاولت أن تتكلم ولكن الكلمات قد ضاعت وسط
زوبعة من البكاء قد عصفت بها ... ثم استجمعت قواها
وقالت لي في صوت متهدج وأنفاس متحشجة: "إنني
بالفعل أحتاج لصديق أسر له بخبيثة نفسي وألقي إليه ببعض
ما يعتمل في صدري، وأرى أنك الشخص الذي أردته بعينه

لاسيما أنني لن ألقاك بعد اليوم، وبذلك لن أتذكر ما قلته معك، ولن أجد ما يجعلني اندم على ما أفصحت به...! لم أجيب ولم أعلق؛ فقد كان الفضول يملكني ولم يكن لي من أمنية في ذلك الوقت سوى أن أعرف سر حزن هذه الفتاة الرقيقة... بدأت تحكي قصتها قائلة :

- قصتي كأية قصة فتاة أحببت رجلاً كريماً نبيلاً رائعاً ثم أبى الدهر أن يمتعهما بهذا الحب، ولكن قصتي ليست كأية قصة لأنني لم أكن كأى من الفتيات اللاتي نعرفهن جميعهن... إذ كان لي في شريك حياتي الذي أتمناه خصالاً لا يمكن أن تجدها في أي رجل!! إنني في حياتي كلها ما كنت عابثة ولا طائشة... كنت دائماً فتاة عقلانية جداً ورومانسية جداً في الوقت نفسه... كنت أتلهف إلى ذلك اليوم الذي سألتقي فيه بشريك حياتي ونصفي الآخر حتى أغدق عليه بكل الحب والحنان والرومانسية الذين احتفظ بهم في قلبي... ولكنني كنت على يقين شديد بأن ليس هناك على وجه الأرض رجل يستحق كل هذا... ببساطة لأنني كنت متأكدة أنني لن أجد

الرجل النقي الطاهر البريء الذي أريده ... كان مبدأي في الحياة أنني يجب أن أحظى برجلٍ ليس له ماضي طالما أنني ليس لي ماضي ... أو لنقل أنني كنت أريد رجلاً لا يعرف الكثير تماماً مثلي ... وكنت أتساءل: لماذا لا أجد مثل هذا الرجل النقي في هذه الحياة؟ لماذا لا يمكن أن أجد رجلاً لم يعرف فتاة واحدة قبلي؟ وكنت كثيرًا ما أتساءل: أيكون ما أطلبه من درب المستحيل؟ أليس ما أطلبه حقًا مشروعًا من حقوقي؟ أليس من حق الفتاة البتول الهادئة النقية أن تحصل على رجل نبيل نقي وطاهر؟ وظللت على هذا المبدأ حتى رأيته! رأيته في إحدى الندوات الثقافية ... لفت انتباهي حينها رأيته منفعلاً ومنشغلاً في إحدى المناقشات الثقافية محاولاً إثبات صحة رأيه ... أنصت إليه باهتمام بالغ ... وظللت طوال الجلسة أصدق فيه بطريقة غريبة ... وأنا التي لم أنظر إلى رجل من قبل على الإطلاق؟ ليس فقط بدافع الأدب والاحترام ولكن أيضًا لأنني لم أجد في رجال الأرض جميعًا من يستحق أن أنظر إليه نظرة إعجاب به وبعقله ... فكيف

إذن أنظر إلى هذا الرجل بهذه الطريقة... انتهت الندوة وسار كل منا في طريقه... وأدهشني أنه لم يحاول قط التعرف على كما حاول أقرانه... أدهشني إعجابه بنفسه وثقته بعقله، ورأيتني بعدها أتابع آراءه وأفكاره ومقالاته على شبكة الإنترنت...!! ما هذا الذي يحدث لي؟ أأكون قد أعجبت به إلى هذه الدرجة؟ ورأيتني أسأل عنه! وعن حياته وعائلته وأفكاره ومعتقداته... حتى فوجئت أنه لم يعد يمر يومًا إلا وكان لابد لي أن أعرف شيئًا جديدًا عنه... حتى كانت ذات ندوة ورأيتني يحاول أن يعلق على إحدى موضوعاتي... واشتد النقاش بيننا وزادت المجادلة... حتى وجدته فجأة قد أنهى نقاشنا هذا مؤكدًا لي أنه اقنع برأيي وأني كنت على صواب... قالها ببسمة هادئة نقية وبريئة... ولكن كيف ذلك؟ كيف يعدل عن رأيه بهذه السهولة؟ والغريب أن رأيه كان فيه الكثير من الصحة... أعجبني كثيرًا طريقته في إنهاء المناقشة... أحسست بجمال روحه وخفة دمه قد أضفت على روحي إعجابًا لا يقارن!

وبعد هذا الموقف ظللت أفكر فيه كثيراً... وظللنا نختلق الندوات حتى نرى بعضنا البعض... ومضت سستان على ذلك ونحن لا نتحدث في شيء سوى المناقشات والمجادلات والندوات... ولم يجرؤ أي منا على الاتصال بالآخر بالرغم من أن كلانا يملك تليفون الآخر من قائمة الندوات... حتى كانت ذات ليلة، أصبح الأمر لا يحتمل إدعاءً ولا كتماناً... اعترفت لنفسي ساعتها أنني أحبه... لن أحاول أن أصف مشاعري في تلك اللحظة، لأنك إما أن تكون قد أحببت، فشعرت بكل لحظة من هذه اللحظات، وبذلك لن تكون بحاجة إلى وصفي، وإما أن يكون قد حرمك الله من الحب، وبذلك مهما وصفت لك، لن تدرك ولن تشعر بقيمة هذه اللحظة. نعم لقد وقع الأمر ولم يعد لي فيه حيلة، لعب القدر لعبته وقلب كل الموازين التي أعدتها لنفسي... أحببت رجلاً له تجارب عديدة مع النساء، رجلاً يعرف الكثير والكثير، رجلاً صادف كثيرات ورافق كثيرات... رجلاً كل مواصفاته تتنافى مع ما كنت أريده... والمؤلم أيضاً أنني أحببته قبل أن

أتزوجه وهذا ما كان يؤنب ضميري ويوجع قلبي ... ولكنني
أحببته... والغريب أنه في تلك الليلة... سمعت صوت
هاتفه يرن ... وحينما أجبت وجدته هو... نعم هو
بنفسه.. لن تتخيل فرحتي وسعادي.. ولما لا أكون أكثر
صراحة فأقول أنني تخيلته واقفاً أمامي يحتضنني ويقول لي:
أحبك! ولدهشتي وجدته يقولها لي بالفعل على الهاتف...
مؤكدًا لي انه لا يحتمل أن يكتم مشاعره أكثر من ذلك!
وظللنا نضحك من كل شيء ومن لا شيء! إنني كنت
أضحك على مبادئي وأفكاري.. أما هو فلم أعرف إلى الآن
سر ضحكته!

جربت الحب وذقت حلاوته لأول مرة في حياتي...
أتساءل كيف استطعنا العيش قبل أن نلتقي؟! قررنا أن
نلتقي ولكنه كان لقاءً عابراً... تلاقينا في العباسية... قال لي
ذات يوم:

- "أعرف فيلا جميلة في الشارع الذي يوجد فيه مستشفى الدمرداش... إنها فيلا مهجورة ولكنها مليئة بالجمال والسحر... سأنتظرك هناك"

دخلت إلى تلك الفيلا وجلست على إحدى الكراسي الخشبية وانتظرته... كانت الأشجار وارفة... خضراء، جميلة ومتمايلة على الكرسي الخشبي وكأنها تحيط بي لتحفظني من كل سوء... وكنت أسمع زقزقة الطيور وهمس الرياح، وكأنها كانت الأشجار تعزف لي لحنا جميلاً... رأيته وتلاقينا للمرة الأولى... أحاطني بذراعيه ولم أقاوم، وأنى لي المقاومة وأنا في حضن حبيبي الذي طالما انتظرته... المقاومة كانت عبثاً!!! همس لي في أذني بكلمة أحبك... أحسست بأنني بين أحضان أرق وأنبل حبيب في الدنيا.. وددت لو تمتد اللحظة أمد الدهر ولكن اللحظات الجميلة هي التي تنتهي سريعاً.

أصبحنا نتلاقى كثيرًا بعدها وزاد الحب في قلوبنا، وهل أكون واهمة إذا ما قلت أنني لم أعد أرى رجلاً سواه أمامي.. حتى بت أو من أنني أنساق إليه بإرادة تفوق إرادتي...

هكذا اقتنصت فرصة العمر بلا ادني تفكير، ولو كنت فكرت لترددت، ولأحجمت ولضاعت الفرصة... كان دائما ما يقول لي أن حبي له قد طهره وأمدّه بالشجاعة والإيمان والقوة... أصبحنا نفسًا واحدة وروحًا واحدة برغم الفوارق الكثيرة بيننا... حتى كنت استكثر على نفسي هذه المتعة الخالدة... وإني لأتصور حالنا وقد ضمنا بيت واحد، نستيقظ معاً وننام معاً.. نبني أركاننا بحبنا وبأرواحنا! وأدركنا أننا لن نستطع أن نفرق أبداً ... فحددت له موعداً مع والدي ووالدتي، وصممت أن انتظره في حديقتنا وأن أصطحبه إلى منزلنا برغم رفض والدي ووالدتي؛ إلا أنني أصررت على ذلك، فقد كنت أود أن أكون معه في أول لحظة تجمعنا معاً...

انتظرته في حديقتنا في الفيلا على نفس المقعد الخشبي.. أظلمت السماء وأنا انتظره... لمحته يقف على باب الفيلا شاحباً مرهقاً... هرولت إليه... احتضنته واحتضنني ... وقال لي أنه كان في غاية التعب والإرهاق.. ومع ذلك لم

يؤجل الموعد..فهذه هي اللحظة التي كان يتمناها منذ
زمن... قائلًا :

- إن الله لا بد أنه يحبني لأنه أعطاني إنسانة رقيقة مثلك،
وحبًا طاهرًا مثل حبنا.. أود أن أقول لك أنني كنت قبلك
إنسانًا فاسدًا، محيطًا بأجواء ملوثة..حتى حينما رأيته،
حاولت أن أنصب حولك الشراك لأوقعك، ولكنني
وجدتك إنسانة طاهرة ونقية.. فلم أستطع إلا أن
احبك..نفسك قد أمدتني بالقوة لمواجهة عيوبي والتخلص
منها... أما وقد جاءت اللحظة التي ستقربنا من بعضنا
وتجمعنا إلى الأبد في بيت واحد... فهذا شيء لا يصدق
عقلي". ثم وجدت ذراعيه قد تساقطا من على كتفي ووجدته
يتهاوى ليسقط على الكرسي الخشبي الذي اعتدنا على أن
نجلس عليه سويًا... فزعت...جلست على الكرسي بجانبه
ونهرته، قائلة :

"-لم يكن عليك أن تأتي اليوم وأنت في هذه الحالة من
الإعياء الشديد..كان يمكن أن نؤجل الموعد... ولكن أن

تأتي وأنت في هذه الحالة... فهذا ما لا أستطيع تحمله... أنت تعلم كم أحبك وكم أخاف عليك"...

ولكنه لم يجبني... ظلت أكلمه عله يجيبني ولكنه رحل.. نعم رحل... رحل إلى عالم لن أستطيع أن أكلمه فيه.. أتى إلى ليراني ثم يرحل، يرحل إلى الأبد... وهكذا استكثر على القدر هذه المتعة الشرعية التي كنت أتمناها... استكثر على الحب الوحيد الذي أحبته في حياتي... وهكذا أنهى القدر لوحتي فجأة... فجرى عليها بفرشاته في عبث الأطفال، فبعد أن أجبرني على رسم اللوحة التي لم أكن أريدها، وبعد أن أرغمني على رسمها بدقة، وبعد أن جعلني أحبها وأعيش معها وبها سكب المحبرة عليها فاختلطت الألوان وأصبحت صورة باهتة لا يوجد بها إلا بقايا ذكريات!!!

مرت ٣ سنوات على رحيل حبيبي ومازلت أسافر كل سنة من الإسكندرية إلى القاهرة لأذهب إلى الفيلا في العباسية وأجلس على المقعد الخشبي وأتذكر حبيبي وأكلمه..

كل شيء كما هو في الفيلا حتى المسمار الذي مازال ناتئاً في
ظهر الكرسي الخشبي، و لكن بالزمن ما مربى...
إلا شيئاً واحداً..

الأشجار الخضراء الوارفة... لم تعد كما هي ..
ففي كل مرة أذهب فيها إلى هناك، أرى أوراقاً مترنحة
جافة تهبط على الأرض في يأس واستسلام ... أما حبيبي فقد
نقلته من مرأى البصر إلى مرأى الذهن والقلب..

مازلت أشعر بروحه إلى الآن في قلبي!!!

سكتت الفتاة الرقيقة ورأيتها تجفف دمعها وأنا جالس
أراقبها مشدوهاً، غير مصدق لما روته، وقد علا وجهي
وجوم وتجهم.. حاولت أن أتكلم، حاولت أن أمنحها بعض
العزاء ولكنني وجدت أن لساني يعجز عن الكلام، ليس لدي
ما أقوله لها...!!!

رأيتها تنظر إليّ في تفهم ثم اقتربت مني وربت على كتفي
قائلة: " لا فائدة من كلامك الآن... أشكر أنك سمعتني...
إن القوة في القلوب وفي العزائم ."

أفقت من غفلتي لأجد الكمسري يربت على كتفي
ليوقظني من سباتي... فقد مضت ثلاث ساعات وأنا
نائم..وها قد وصلنا إلى القاهرة أخيراً... نظرت إلى الفتاة
المتشحة بالسواد، ورأيتها تمسح دموعها وتلملم حاجياتها...
مستحيل..أكان كل ذلك حلماً... تُرى ما هي قصتها
الحقيقية؟ أيمن أن يكون ما حلمته هو الحقيقة ؟

أود أن أسألها ولكن لا وقت لدينا...القطار قد وصل
للمحطة .. ورأيتها تنهض وتستعد للنزول ثم اعتدلت
ونظرت إلىّ تسألني : "من فضلك، هل لي بسؤال؟ أي الطرق
تسلك للوصول إلى الفيلا القريبة من مستشفى الدمرداش في
العباسية لأنني في كل مرة آتي إلى هنا أضل طريقي؟"

سألتها: "أهي تلك الفيلا المهجورة المعروفة بأشجارها
الوارفة وكرسيها الخشبي الذي يبرز المسمار في ظهره؟"!!!!

قالت في ذهول وترقب: "نعم! أتعرفها؟"

قلت: "أعرفها حق المعرفة!!"

لقاء بين المقابر

أعلم أنك تتهمني بالجنون الآن، ولكنني أريدك ولا
أظنك تخذلني وأنت الرفيق الرحيم كما كنت دومًا في
نظري... أرجوك أبقى معي هذه الليلة... هذه الليلة فقط
... فلقد انتظرتك طويلاً.

انطلقت بسيارتي الفارهة في ظلمات الليل والطرق
المظلمة إلا من أضواء خافتة رسمتها عواميد النور على
الشوارع الخالية من الناس. انحرفت بسيارتي حتى وجدت
نفسي أجول بين مقابر مصر الجديدة بعدما قضيت ليلة رائعة
مع أصدقائي شربت فيها كل ما قد يجول في خاطرك من
محرمات وغير محرمات... حتى كدت لا أرى شيئًا أمامي وأنا
أقود سيارتي من أثر ما كنت أشربه. وقلت في نفسي أنه لربما
أجد فتاة جميلة في هذا الطريق المظلم أستطيع أن أُلطفها

وأقضي معها بقية ليلتي ... ظللت انتهك طريقي وأجوب
بسيارتي بين المقابر حتى شعرت أنني أكاد لا أبصر شيئاً وأن
الخمرة قد تملك من رأسي ... فوقفت بسيارتي وفتحت نافذتها
لأستنشق بعضاً من الهواء النقي، وقد أرجعت مسند الكرسي
إلى الوراء حتى استرخي قليلاً ...

وقد كان المكان مخيفاً مظلماً ...

سكون سائد وصمت عميق وسماء ترتجف فيها النجوم
خائفة مرتعشة ...

وحُيِّل إلى أنني أبصر في الأفق المظلم أشباحاً تروح
وتغدو ...

إلا أنني أقنعت نفسي أنني لا بد وأنني أتوهم ذلك .. أما
آن الأوان لأن أبعد عن تلك المنكرات التي تذهب عقلي ...
لقد كانت تقول لي ذلك من زمن بعيد ... لما تركتها؟؟ لقد
كنت إنساناً نذلاً لا يستحق الحياة!!! تركتها لأنني أخشى
المسئولية والزواج ...

دعني من مثل هذه الأفكار التي قد تعكر صفو الليلة ...
وفجأة مزق هذا السكون الذي يحيطني صوت بكاء خفيض
يشبه الأنين... أصابتني الرجفة ... لقد كان المكان موحشاً،
مظلم النواحي مما لا يجعل النفس تتقبل هذا الصوت بسهولة
وبغير فزع ... أنصت باهتمام ولكنني لم اسمع بعدها شيئاً ...
فحدثتني نفسي أنه لربما توهم عقلي ذلك وخاصة وأنني في
شبه غيبوبة ، إلا أن الصوت قد عاد إلى الأنين مرة أخرى مما
دفعني إلى الفزع والخوف ... فقررت أن أغلق السيارة وأنزل
لأستطلع ماذا يحدث بين القبور وما هو مصدر ذلك الصوت
... ولا أستطيع أن أنكر كيف كنت خائفاً، فزعاً، ولكن
فضولي كان أقوى من خوفي ... وخُيل إلى وأنا أسير بين
القبور أنني سأبصر أشباحاً تروح وتغدو كما يُروى في
القصص والأساطير ... حتى أبصرت في الظلام مخلوقاً لفته
الظلمة فجعلت منه ما يشبه الشبح. ثم بدأت معالم وتفاصيل
هذا المخلوق تظهر جلياً كلما اقتربت منها ...

نعم إنها فتاة...!!!!!!!!!!

لعب الشيطان برأسي ووجدتني أقول لنفسي في خبث :
"هاهي الليلة تكتمل وقد لاحت فتاة أمامي، فرسم القدر
لوحتة الجميلة ليكمل ليلتي التي كنت اخطط لها..."

اقتربت منها فوجدتها جالسة بجانب إحدى المقابر وقد
عرضت لوحة كبيرة أمامها مسندة على القبر، وقد راحت
ترسم في دقة وتركيز حتى خُيل إلى أنها لا تشعر بوجودي ...
أثرتي وجود هذه الفتاة في هذا الجو الغريب المخيف ...
صحيح إنها لا تبدو بالجمال الذي كنت أتوقعه لقضاء ليلة
جميلة، ولكن هناك ما يجذبني إليها، وأود لو أعرف قصتها!!

اقتربت أكثر وشعرت بحسي المجرب أنها فتاة جميلة أو
ربما كانت كذلك، فقد بدا حول عينيها تجاعيد الإرهاق
والذبول ... حقيقة لقد شعرت بخيبة الأمل، فلم تكن هي
من ذلك النوع من النساء الذي قد يأسرني! أردت أن
انصرف، فليس هناك ما يدعوني لأني أجازف بليلتني، ومع
ذلك لم أتحرك ... لا أعرف لماذا؟ فكثيرًا ما ينطلق تفكيري في

ناحية بينما يظل تصرفي في سكون وبرود من ناحية أخرى ...
زاد اقتربي منها ورأيتني أسألها في لهجة استغراب :

- ماذا تفعل فتاة رقيقة مثلك في المقابر الساعة الثالثة
فجرًا؟؟؟!

أزاحت خصلة شعرها من على وجهها وتحركت ببطء ثم
نظرت إلى ... نظرت إلى طويلاً وساد الصمت لبرهة من
الوقت حتى ظننت أنني أحدث نفسي، ثم راحت تنظر إلى
لوحتها مرة أخرى وكأنني ليس لي وجود!!

فعدت استحثها الكلام، فقد كان رد فعلها ذلك غريباً
جداً، وقلت:

- لما لا تحيين على سؤالي، ولما لا تذكرين سبب وجودك
هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟؟؟!

نظرت إلى نظرة طويلة في صمت مريب وكأنها تبحث في
معالم وجهي عن شيء قد تاه منها منذ زمن، ثم قالت:

- لقد كنت انتظرك !!!!!!!!!!!!!!!

فاجأتني تلك الإجابة كثيرًا ، كثيرًا جداً ... إنني لا أعرفها
ولا اعتقد أنني قد رأيتها من قبل ، فأجبتها في لهجة مستنكرة
وبصوت عالٍ:

- كيف تتظيريني؟ أتعرفيني؟

إنني لا أذكر أنني قابلتك من قبل!!!

بدا عليها ألم مروع حينما سمعتني أقول ذلك، ورأيت
دمعاً يترقق من عينيها ... فكرت قليلاً فوجدت أن الليلة
وما خططت لها قد بدأ يتلاشى، فحاولت أن أقوم لأفوز بما
بقي من هذه الليلة خير من الجلوس في هذا الجو الحزين ...
اعتدلت قليلاً في جلستي تأهباً للذهاب، فوجدتها تقول لي:

- فيم التعجل؟

أتريد أن تتركني مرة أخرى بعد كل ما انتظرته؟؟؟!!

نظرت إليها في غضب وذهول ... لا بد أن هذه السيدة قد
أصابها الجنون من جراء جلوسها وسط المقابر كل هذا

الوقت... نظرت إلى نظرة أشعرتني أنها فهمت ما يجول في خاطري فوجدتها تقول:

- أعلم أنك تتهمني بالجنون الآن، ولكنني أريدك ولا أظنك تخذلني وأنت الرفيق الرحيم كما كنت دومًا في نظري... أرجوك أبقى معي هذه الليلة ... هذه الليلة فقط ... فلقد انتظرتك طويلاً.

وعادت إلى الصمت مرة أخرى منتظرة جوابي... صمتت لبرهة وهي تنظر إلي وكأنها تستعطفني... وأردفت قائلة :

- كنت في الثامنة عشر ...

إنها مصممة على أن أجلس معها، فكرت قليلاً ... فوجدت أنه لا ضير من قضاء بقية الليلة معها، لقد انتهت الليلة ولم يبق منها أمل ... عادت لتكمل :

- كنت في الثامنة عشر عندما شعرت بالحب لأول مرة ... وقد كنت مشهورة بين زميلاتي بالمهارة في الرسم، فكنت كثيرًا ما أصور حياتي مع من أحب في لوحاتي الخيالية الجميلة

... وظللت أعيش معه ومع لوحاتي تلك القصة الرومانسية
الهادئة المليئة بمشاعر الحب البريئة حتى وجدته قد بدأ ينأى
عني دون سب واضح، ورأيت حبه لي يتلاشى ...

فاجئني جفائه وأنا التي لم أتخيل أن الحب والوفاء يمكن
أن ينعدما في الحياة ... ومع ذلك ظللت على عهدي ووفائي
له، ورفضت كل من تقدم لخطبتي وقد كنت انتظره ...

لقد كنت على يقين أن حبنا لا يمكن أن يزول ... ربما قد
مر عليه بعض لحظات الملل ولكن لا بد وأنه سيعود حتى وإن
طال انتظاري ... كنت آتي كل يوم هنا إلى المقابر حيث لقائنا
الأول ... حينما التقينا أول مرة صدفة وأنا أزور قبر أبي ...
كنت آتي لأتذكر أيامي معه حينما كان يأخذني بسيارته
ونقض معاً أحلى اللحظات، فانتظر وانتظر ولكن لا أحد ...
وتوفيت والدتي أيضاً وبقيت وحيدة، فرأيت أنني لا بد وأن
أهبط حياتي كلها له ... فلم يعد لي سواه في هذه الدنيا ...
واستأجرت مكاناً في حي مقفر مجاوراً للمقابر المظلمة حتى
آتي كل يوم وأجلس وأرسم حتى الفجر علني أراه ...

وأصبحت أقنات يومي من لوحاتي... وبت اجلس على القبر
وأحلم وأرسم وانتظره وقد أنهكني التراب وأرهق هذا الجو
صدري وأصبحت لا أستطيع تحمل هذه الأتربة حتى علمت
بعدها أنني لن أعيش طويلاً...!!!

يا للحمق والغباء ! كيف صور لي الوهم أنني سأحيى معه
حياة هائلة جميلة ...

ومع تلك اللحظات باليأس ظللت أتمسك بآخر أمل لي،
وبدأ لي أنه هو الآخر يسير في نفس الطريق ... طريق الحب
والوفاء الذي أسير فيه ... وأنه يبحث عني أيضًا ... وأنا لا
شك ستتقابل في النهاية ... كنت كثيراً ما أتذكر حديثنا
وخوفي عليه وعلى صحته وكيف كنت أنصحه أن يتبعد عن
المحرمات حتى يحافظ على صحته ... وها أنا الآن جسد
مسجي أحتاج إلى نصحه وحبه ورعايته، وبت أدعي الله أن
يمن علي برويته لأكمل اللوحة التي بدأتها منذ أحبيته ...
حتى حقق الله لي أمني الآن .. أمازلت تعتقد أننا لم نتقابل من
قبل؟؟؟!!!

وفجأة وكما يهرق وميض البرق بدت لي في ملاحظها
الشاحبة المضمرة صورة قديمة لفتاة جميلة ظننت أنني أحببتها
منذ سنوات مضت وتركتها كما اعتدت أن أترك غيرها من
الفتيات ...

يا للمفاجأة!!! لم أكن اعتقد أبداً أن هناك من يستطع أن
يجب في هذه الدنيا بمثل هذا الوفاء والصدق وتذكرت كل ما
كان بيننا ... يا لي من إنسان جبان أحق لم يقدر النعمة التي
كان يملكها ... أحسست بأني أكاد أتهاوى في موضعي ...
نظرت إليها وهي مترنحة أمامي في صمت مشدوهاً دون أن
أجسر على أن أقول شيئاً ولكنني اعتدلت وقلت لها :

- ها أنا قد عدت إليك بعدما عرفت معنى الحب
والوفاء ولسوف أعوضك عن كل ما فقدت ...

ولكنني لم أتلق أي جواب ... لقد فارقت الحياة!!!! نعم
فارقت الحياة بعدما قضت حياتها كلها في حب ووفاء لإنسان
لا يستحق شيئاً، ومع كل ذلك كانت تفترض فيه حسن
النية... كل هذه السنوات ومازالت تفترض فيه حسن النية
وتحبه، أما نحن فنفترض سوء النية في الناس مع أول موقف

يواجهنا... لا بد وأنها ملائكة... لقد فقدت ملائكة كان يمكن
أن يسعدني ويحييني... بكيت... نعم بكيت كثيراً وأنا الذي
لم أبك في حياتي قط وشعرت بأن بكائي وندمي وحياتي كلها
قليلة لا تساوي شيئاً... حملتها ورفعتها بين ذراعي غير
مصدق، وحينما اعتدلت وجدت على القبر كلمات سطرتها
بخط يديها تقول: "هنا أرقد بسلام بعدما أطمأنت روحي
أنك ندمت على تركك لي... لقد كنت أعلم أنك مهما بعدت
ستأتي لأن حبنا كان قوياً..."

لم أتمالك نفسي من البكاء...

لقد كانت على يقين من حبها ومن أنني سأأتي!!

سجدت أمام قبرها وأعلنتها صريحة:

- أحلف بالله أنني سأقلع عن كل المنكرات... سأفعل
كل ما كنت تطمحين إليه وأعدك أن أكون رجلاً صالحاً وأن
أكون وفياً لك متى حييت...

لقد علمني حبك كيف يكون الوفاء وكيف تكون
الرجولة الحقة.

بيني وبينه

أهكذا بت لا أملك لك إلا خطوات قليلة أسيرها وراءك
وسط هذا الحشد والكومة من الباكيين؟!

لا يهمني أن أعرف كم من الناس تحزن على فراقك، ولا
يهمني أن أرى تلك الدموع الغزيرة على وجوههم ... لم يكن
يهمني إلا أنت ... أنت فقط كل حياتي!

جلست وحيدة وسط هذا المنزل الخالي المليء بالذكريات
والأنقاض والأطلال.. سكون مخيف لا يشوبه ولا يقطعه إلا
نعيق بوم أو نعيب غراب أو أصوات الشبايبك تحركها الريح
فتحدث فيها صريرًا منتظمًا... في ذلك السكون الذي لا
أسمع فيه إلا بكاء قلبي ونواح فؤادي تذكرته وكيف لي أن
أنساه ... لقد أعطاني ما يفوق الوصف والخيال... أعطاني

الكثير دون أن ينتظر مني شيئاً ... أغدق عليّ بحبه وحنانه
وماله بطريقة تفوق الوصف ...

كان سندي في الدنيا وظهري الذي أتكأ عليه ...

ما هذا الضباب الكثيف الذي يحيط بالغرفة ...

إنها الحجرة التي اعتدت أن اجلس فيها دومًا بلون
حوائطها الأزرق وبمكتبتها التي طالما سرحت وأنا أقرأ
فيها ... ولكنها ليست كما اعتدتها أن تكون، فهذا الضباب
الكثيف الذي يحجب الرؤية لم يكن موجودًا من قبل ... ما
هذا السكون المؤلم وكأن عقارب الساعة لا تتحرك ... والآن
نط عقرب الدقائق في الساعة المثبتة على الحائط عدة مرات،
كل دقة تدوي دويًا قويًا وسط هذا السكون العميق.

إنني لا أخاف السكون، ولا أخاف الضباب ولكنني
كنت دومًا ممن يخافون الظلام، ففي الظلام تحدث أشياء كثيرة
لا نتوقعها!

تغير لون الغرفة مع لون الضباب... أصبحت الغرفة
شاحبة اللون... رمادية الحوائط... تو مض بعض اجزائها
بأنوار بيضاء ساطعة تكاد لا تبصر شيئاً منها... وهناك على
الأريكة التي ترقد ثابتة مضيئة وسط غرفتي خُيل إليّ أنني
أبصر شبحاً في ضوء خافت! اقتربت... كان وجهه مضيئاً،
جَمِيلاً، مبتسماً كما كان دائماً... نعم بدأت أتعرف على
ملاحه...!! كان يحب الضحك والإبتسامة وكان دوماً يمزح
معي قائلاً: "ألا تحبين الابتسام والضحك... ابتسمي...
فالدنيا لا تساوي شيئاً"... حاولت أن أتأكد مما أبصره...
نعم أنه هو... ولا يمكن إلا أن أكون مصيبة فيما أراه، فأنا
كنت أكثر قرباً إليه من نفسه الذي يتنفسه، كنت أفهمه دون
أن يتحدث... كنت أعطيه ما يريد وقتما يريد حتى أن زوجي
كان يغار منه... فكثيراً ما كنت أفضله على زوجي بل وعلى
نفسي أيضاً وعلى كل الناس.

كيف يحدث ذلك؟ لقد فارق الحياة منذ شهور... كيف
أراه أمامي الآن جالساً مبتسماً يفتح لي ذراعيه...

حتماً أنا واهمة ... لا أريد أن أمني نفسي . إن الإنسان حينما
يُوهب لحظات من الأمل ويتذوق جمالها وحلاوتها ثم فجأة
يُحرم منها وكأن ما حدث شيئاً ...

فهذا ما لا أستطيع احتمالَه ... الخيال دائماً أحلى من الحقيقة
وحينما يكون الانسان سعيداً، فإنه يحاول أن يستبق الحاضر
حتى يسعد به !

أشعر أن عقلي يكاد ينفجر فصور الماضي تتحرك أمامي
مزدحمة متلاحقة ... أغمضت عيني وفتحتها ... مازال جالساً
مبتسماً يشع وجهه ضياءً غريباً روحانياً، مرتدياً جلبابه
الأبيض الذي اعتاد أن يلبسه يوم الجمعة للصلاة ... تفوح
منه رائحة المسك التي كان دوماً يضعها، فقد كان كلما ذهب
إلى السعودية يعود محملاً بزجاجات عطر صغيرة برائحة
العود والمسك وكان دوماً يتعطر بها ويقول لي:

- "بيني وبينك" إنها تذكركني بالحرم والصلاة في مسجد
النبي ﷺ!

آآه !!! أنت حقيقي كما تبدو لي؟ لابد أن اقرب وأدنو
منه لألمس يديه وأتحقق إن كان مازال على قيد الحياة أم أنني
أتوهم ذلك ...

اقربت ... مددت يدي ... ومد هو يديه ... لامست
أطراف أصابعي يديه ... اقربت أكثر ... احتضنته
واحتضنني ... أشعر به وبحضنه الدافئ ... إنه حقيقي !! إنه
على قيد الحياة ... مازلت معي يا حبيبي، يا أعز عليّ من
روحي ... ألسنت هنا كما أراك؟

- نعم يا حبيبي وسأظل معك ولن أتركك أبداً!

مازال ينبض ... إنه معي ... لم يفارق الحياة بعد ...
تذكرت يوم أن أعلنوا وفاته ... حينما عدت للبيت بعدها لم
أصدق أن هذا هو البيت الذي كان دوماً يحوينا ... هنا كنا
نجلس ونتحدث ونشاهد التلفاز معاً ... كنا نحب مشاهدة
المصارعة الحرة وكنا نجلس سوياً نشاهد ونضحك ونحكي
قصص زمان ... وهنا كنا نطبخ سوياً وكان يصنع لي كل ما
أحبه ، بل كان يتحامل على نفسه كثيراً حتى يسعدني ...

لم ينسني أبدًا ... أصبح المنزل خاليًا ... ألن يطرق الباب
الآن ... أصبح الدار خاليًا إلا من وقع أقدام الأقارب جاءت
لتعزينا وكانوا يجولون المنزل يتحدثون ويكون وكأنهم أشباح
تروح وتعدو.

مازلت لا أصدق أنه فارق الحياة ... أما الآن فأنا أرى
نفسي مصيبة في تفكيري ... فهذا هو أمامي يحدثني وأحادثه ...
إنه حي أمامي .. وأشعر بحضنه الدافئ ... اقتربت منه أكثر
ونظرت إليه نظرة ملؤها الدموع والحب في الوقت نفسه ...
فقال لي:

- كم اشتقت إليك يا حبيبتني وجئت كي اطمئن
عليك.

ثم ابتسم ابتسامته الهادئة الجميلة وقال جملة الشهيرة التي
اعتاد الناس على سماعها:

- ("بيني وبينك يعني" كان نفسي أقعد في السعودية
علطول وارتاح بقه وابعد عنكوا شوية وانت عارفة محدش

بيعرف يعمل حاجة من غيري، لكن انتم وحشتنوني وقلت
آجي اطمن عليكموا واشوفك).

فقلت له:

- ولكنك توفيت بعد مجيئك من السعودية بيوم واحد!!

فقال لي:

- (ركزي معايا ! بقولك كان نفسي أقعد في السعودية
طول عمري ... بس رجعت عشانك أنت).

نظرت إليه نظرة طويلة ممعنة فيه وكأني أريد أن آخذ نصيباً
من رؤيته يكفيني العمر كله ...

فإذا بالضباب قد بدأ ينقشع ...

وإذا بالغرفة تعود إلى سابق عهدها من ألوانها وشكلها
ووضوح الرؤية ووجدت نفسي مستلقيه على سرير
وبجانبني والدتي وقد أقبلت نحوي واحتضتني وهي تبسم
قائلة:

- أخيرًا أفقت من غفلتك ... لقد ظلمت أتحدث إليك
ولكنك لم تجيبني ... الحمد لله أنك بخير.

أهكذا بت لا أملك لك إلا خطوات قليلة أسيرها وراءك
وسط هذا الحشد والكومة من الباكيين؟!

لا يهمني أن أعرف كم من الناس تحزن على فراقك،
ولا يهمني أن أرى لك الدموع الغزيرة على وجوههم ... لا
يهمني إلا أنت ... أنت فقط كل حياتي!

من العذاب أن تكتب لمن لا يقرأ لك، وأن تحب من لا
يشعرك وأن تحتاج من لا يحتاج إليك، وأن تطلب ممن لا
يطيقونك ... وأن تنتظر من لا يأتي إليك ... أسوأ شيء في
الحياة هو انتظار ما لا يأتي: انتظار حلم لا يأتي ... انتظار
رجل أو امرأة عطوف حنون لا تشعر أو يشعرك ... انتظار
حب ميؤوس منه ... انتظار شخص رحل عن الحياة لن يأت
ابدًا ... ومع كل ذلك انتظر يا أبي واتوقع أن تتطرق بابي
كل لحظة ... فقد كنت تحتل جزءًا كبيرًا في حياتي بل حياتي
كلها !

نظرت إلى أمي وقلت لها:

لقد كانت تلك الغفلة هي حياتي كلها وتأكدت فيها أن
الانتظار هو أصعب ما حدث لي في حياتي وأن أمر الله
نافذ....

"وبيني وبينك يا أمي" أنا الآن في خير حال!

الصورة المتحركة

- لقد جُنَّ إبننا ... أهمل عمله وحياته وانتقل ليعيش
بين المقابر وكان آخر ما قاله أنه لا يريد في هذه الحياة سواها
... سوى الصورة المتحركة!!!!

هل تمنيت من قبل أن ترى شخصًا يصعب عليك
الآن رؤيته بعدما كان مرآى عينك وبصرك، ولم تكن تريد أن
تبصره؟ هل أدركت يومًا أنك فقدت إنسانًا عزيزًا عليك،
قريبًا إلى قلبك، ولم تكن تعلم قدر حبك له إلا حينما فارقته؟
بل دعني اسالك سؤالاً أهم ... هل تؤمن بوجود الأرواح
والأشباح، أو بمعنى آخر، هل يمكن أن تصدق بوجود
اتصال روحي بين الأموات والأحياء؟ إن الله ينعم علينا بنعم
كثيرة لا تعد ولا تحصى. وفي أحيان كثيرة يكافأنا الله بنعمة
كبيرة، وإن لم نحافظ عليها وتمسك بها ... ستحيا طيلة
حياتك نادمًا باكيًا عليها، ولن تستطع أن تعوضها متى

حييت... هذا ما أكدته لي قصة صديقي العجيبة التي
سأرويها لك الآن.....

إن كنت تريد أن تحيا حياة عابثة، طائشة، حياة يملؤها
الغرور والمتعة والمجون واللهو والإستهتار، فلتشارك
صديقي هذا حياته !! إنني ما رأيته قط مستقرًا على حال، أو
هادئًا باله، أو راضيًا قانعًا بحياته ، ولا حتى سمعت منه أنه
يريد يومًا الاستقرار كباقي الرجال... فقد كان يرى الزواج -
الذي هو اسمى هدف في الحياة - أنه قيد ووثاق لا ينبو عنه
إلا الملل والتقييد وجمود الحياة. لم يكن يعلم أن الرجل قد يقيد
نفسه بامرأة واحدة منفردة معينة بمحض إرادته واختياره
فقط لأنه أحبها بحق وفقط لأنها تحبه بحق... ولست أدعي
بقولي هذا إفتراءً على صديقي، أو وصفًا له بالشر والبلادة
والعنف، ولكنك إذا قارنته بغيره من الرجال المسؤولين
المبجلين... أقول لك... دعني لا أقارنه بأقرانه... فأنا آنف
أن أقارنه بأحد لأنه برغم كل ما به من عيوب، إلا انه رجلاً

كريماً ، نبيلاً ، ذو خلق وإلا لما صادقته إلى الآن. ولذلك فأنا
أحاول إصلاحه قدر ما استطعت.

لقد كان لصديقي هذا ابنة خال، امرأة جميلة لا يمكن مهما
حاولت من أن تصل بمخيلتك أن تدرك مدى نقاء سريرتها
وصفاء قلبها ورقة مشاعرها ... إنها فتاة لو تزوجها صديقي
هذا وعاش معها، لارتقى بحياته أعلى رُقي، ولسما بنفسه أيما
سمو، ولعاش كأهنأ ما يكون إنسان. لقد كانت لتلك الفتاة
وجهًا يشع منه النور إيمانًا وصلحاء، وملامح تجذب أي رجل
مهما كانت مقاومته ... لقد كانت صادقة الحس، شاعرية
النفس، مرهفة الشعور. وفوق كل ذلك كانت تحبه حبًا دفينًا،
حبًا قويًا طاهرًا. وقد كان كل الرجال يرونها فتاة مشرقة جميلة
ويسعون وراءها من أجل أن يرتبطون بها ولكنها كانت
ترفضهم جميعًا ... فلم تكن ترى رجلاً غيره أمامها ولم تكن
تستطع أن تهب قلبها إلا له هو ... أما هو فلم يكن - برغم
كل ذلك - يحبها!!! إن كل ما في الكون مشرقًا متلئلاً لها إلا
قلبه فقد تكدست حوله الظلمات وكأن السحاب قد حجبت

عن قلبه نورها كله وحبها كله ... وكان دومًا يقول لي أنه حاول كثيرًا أن يفكر بها ويحبها ولكن دون جدوى ... كما أنه لا يستطيع أن يجبر قلبه على ذلك ... وكان يصعب علي رؤية تلك الفتاة وقد شغفت به حبًا وجعلت منه أملها في الحياة، فأصبحت تعطي بلا انتظار لرد الجميل، وتحب بلا انتظار لرد الحب ... وأراه هو يرتع بين الفتاة والأخرى ولا يعير لها اهتمامًا ولا انتباهًا ... فقد كانت طبيعته اللاهية تجعله يعشق حياة العبث منها إلى الاستقرار والهدوء ... وكان كلما يفكر فيها يؤكد لي أنه حاول أن يحبها ولكنه لا يعرف لماذا لا يشعر أن تلك الفتاة لا تبعث في نفسه باللهفة ولا في جسده بالحرارة والنشوة التي تبعثها صديقاته اللاهيات العابثات!!

وكنت أسمع أن الكثير من أفراد العائلة قد علموا بحبها له، ولكنها لم تكن تأبه لأي حديث من ذلك النوع، لأنه كان بداخلها اليقين بأنه سيأتي اليوم الذي سيرتبطان فيه برباط الحياة ... وتخرج صديقي من كليته وبدأ يعمل ويكد، وبدأ يدرك مسؤولية ما يحدث من حب الفتاة له المستمر المتلاحق،

فأراد أن ينهي ذلك الحديث حتى تكف عن حبه، وتنبه لحياتها لأنه ببساطة لن يحبها أبدًا.

ذهب إلى خاله وصارحه بحقيقة مشاعره تجاه ابنته...
وحينما علمت الفتاة بما دار بين أبيها وبين حبيبها صدمت فيه،
وتحطمت أمانيتها... زُرتها وحاولت أن أهدئها، فكنت أكثر
من السب فيه ومن ذكر عيوبه لكي تكرهه وتنساه ولكنها
كانت صامته دائمًا ومشدوه... حاولت أن أؤكد لها أن كل
الرجال يتمنونها وأني أول هؤلاء الرجال إن كانت ترضى
بي.. ولكنها أكدت لي أنها لم تحب ولن تحب أحدًا سواه حتى
وإن كان لا يستحق ذلك.. وانتهى حديثنا على ذلك.

بعد حديثي معها بأسبوعين علمت من أبيها أنها مذ
علمت بمشاعر صديقي وهي في حال يرثى له... فقد وهنت
وزاد السواد حول عينيها فشحب وجهها من شدة الاكتئاب
والتفكير ولم تعد تفارق غرفتها.. لم أكن أتخيل أنها تحبه كل
هذا الحب. وددت لو يعرف بذلك لعل قلبه يتحول إليها...

فهرعت إلى صديقي بعدما علمت بسوء حالتها وحدثته بما سمعت، فقال:

- وماذا عساي أن أفعل؟ ألا تدرك أنني لا أحبها؟ كما أنني ليس لي ذنب في ذلك! فما وعدتها بشئ قط ولم أغرر بها في حياتي أبداً منذ عرفتها لأنها في النهاية إبنة خالي... أما وقد باتت على هذه الحالة فتلك مشكلتها وحدها! وعلى كل حال، ستأخذ وقتها وتنساني قريباً!!

لم أعلق فكلامه قد أوقع صدى في قلبي لا تعليق يفيد..

فزعت حينما علمت بعدها بيومين أنها قد توفيت في كرسيتها... فذهبت إلى صديقي وعرفت أنه سمع بالخبر فوجدته حزيناً عليها، وظل يؤكد لي أنه غير مذنب بشأنها... لم أرد أن أطيل الحديث أكثر من ذلك فقد انتهى الأمر ولا فائدة من الكلام.

بعد موت الفتاة بأسبوعين، سمعت طرقاً مدوياً على باب منزلي... فتحت في ذهول فوجدته صديقي في حالة مُزربة

قال لي منذ أسبوع - أي بعد وفاة ابنة خاله بأسبوع -
ذهب إلى المقابر ليزور قبر ابنة خاله. جلس أمام المكان الذي
دُفنت فيه وظل واقفاً أمام قبرها صامتاً، حزيناً شاعراً بالذنب
تجاهها. وعندما حاول إخراج سجائره من جيبه وقعت
صورة لها كانت قد أهده إياه منذ وقت قصير، فتذكر تلك
الصورة . لقد كانت جالسه على الكرسي الخشبي مسندة يديها
وذقنها على حرف الكرسي ومرتدية فستاناً هادئاً جميلاً وردي
اللون... كانت عجيبة وساحرة في هذه الصورة حتى أنه قال
لها ساعتها وهو يضحك أن الصورة أجمل من الواقع... كم
كان أبله وغشياً في كلامه معها وكانت تتحمله رغم كل ذلك
بابتسامتها الهادئة الراضية... وضع الصورة أمامه على القبر
وظل يتأملها حتى شعر باختناق في الجو وأدرك أنه على وشك
أن يفقد وعيه... فجلس على الأرض بجانب القبر وظل
يتأمل الصورة ويتأسف لها على كل ما فعله معها... حتى
فوجيء بأن الفتاة تتحرك داخل إطار الصورة، بل إنها تخرج
منه الآن لتقترب إليه قائلة في ابتسامة رقيقة:

- إنني قبلت أسفك حتى قبل أن أموت ... حينما علمت بمشاعرك وددت لو تعرف كم تعذبت بعدك فتأتي لي وتعتذر فأطردك - رداً لكرامتي - وأقول لك أنني لا أريدك... أو قد ظننت أن الله لم يخلق في العالم غيرك؟ سأتزوج بمن هو أفضل منك ... ولكنني أدركت أنني مهما حاولت أن أخفي حبي، فإنني بذلك أزيده ظهوراً ووضوحه لأن حبي لك أقوى من تلك الترهات..

اقتربت منه أكثر حتى كاد يلتصقان واحاطته بذراعيها وجلست على قدميه ، وهمست في أذنه : أحبك وسأظل أحبك في حياتي وفي مماتي!!!

حينها أكد صديقي لي أنه شعر في ذلك الوقت بحب شديد لها، وبأنها قد عوضته عن كل الفتيات اللاتي عرفهن وكأن هذا الحب كان تائهاً، ضالاً عنه، ثم عاد إليه في تلك اللحظات وود ساعتها لو احتضنها وقبلها ... ولكنه استفاق ليجد نفسه أمام الصورة الساكنة وكأن شيئاً لم يكن ... حاول أن يكلم الصورة ولكن لا أحد يجيب ... وظل بعدها على

ذلك ستة أيام... في كل يوم يذهب إلى المقابر ويحاول أن يتحدث مع الصورة ولكن لا أحد يجيبه ولكنه يشعر بها كل ليلة تكلمه وتحدث معه في منامه... شردت حينما سمعت تلك القصة وقلت له:

- أحدثك الحق يا صديقي.. أنا لا أعلم إذا كان هناك وجودًا للأشباح أم لا... ولكنني سعيداً أن تلك الفتاة قد أصبحت لها وجود في حياتك أخيراً حتى وإن جاء متأخراً.

ذهب صديقي إلى منزله وظل قرابة الأسبوع لا يأتي ولا يسأل عني... فذهبت إلى منزله ودلفت إلى الحجرة المؤدية إلى الداخل... فوجدت والديه جالسان في حزن مروع وحينما سألت عما بهما وعنه.. قالوا لي:

- لقد جُنَّ ابننا... أهمل عمله وحياته وانتقل ليعيش بين المقابر وكان آخر ما قاله أنه لا يريد في هذه الحياة سواها... سوى الصورة المتحركة!!!!

عندما يحب الرجل

كنت أعتقد أنها قد تستطيع أن تحبني وكنت أرى فيها
شمساً ستشرق لتعوضني خيراً من الشمس الغاربة...
ولكنني أدركت كم كنت مخطئاً...

تُرى ماذا يمكن أن تقول عني بعد الآن؟

قالت لي في هدوء وخجل قليل ما يتتابها، وفي صوت
خافت تكاد تسمع أنفاسها فيه:

- أعلم كم أنت حزين لأنك صرحت لها بما في قلبك من
حب ومشاعر، ولم أكن أتوقع قط أن يكون للحب عندك
معانٍ جميلة وصادقة إلى هذا الحد. إنني ليس لي خبرة في
الحب، ولا أعلم بل لا أجدر شيئاً عن هذه الكلمة ولا أجدر لها
تعريفاً، فإذا كنت أنت تعرف لها معناً فقل لي: ما هو الحب؟!

- إذا كنا ستحدث عن الحب، فحدث ولا حرج، بل حدث بلا توقف، وحدث وكلك عطاء، وحدث إلى نهاية عمرك ... فلن يكفي عمرك حتى لو كنت فانياً وصف لحظة واحدة من لحظات الحب الرومانسية الرقيقة الهادئة كنسيم البحر وهمس الطيور في صباح ندي على موج البحر.

هكذا بدأت كلامي معها في لحظة كنت شديد الحاجة إلى أن أتحدث وأفرغ ما في جعبتي من مشاعر حب جميلة وأحاسيس عشق خفية لا يعرف عنها أحد ... شعرت أنها هي الوحيدة العارفة الملمة بكل ما أشعر به، ولكنها مع ذلك لا تتحدث ولا تفصح عما تعمله، فما كانت تقدر أن تفعل ذلك إلا حينما أسمح أنا لها بذلك. ولذلك وجدتني وبعد عناء يوم طويل قد جلست في البلكونة ليلاً أمام بحر الإسكندرية الطائش الهائج والذي لا أراه قدر ما أسمع.

في جو كهذا تكاثفت فيه السحب فحجبت مصابيح السماء، نظرت إلى البحر وقد لونت السماء السوداء لونه فأصبح ككلب ضال يعوي في الظلام ولا يجد من يسمعه إلا

أنا ... ظللت سارحاً في أصوات أمواجه المتلاطمة وهي
تصرخ وكأن أعماقي قد وجدت فيه الخليل والصديق،
فصارت هي الأخرى تصرخ وتنادي، فهل من مجيب؟!
وجدتها قد قطعت خلوتي تلك قائلة:

- أما زلت تحبها؟ لا أستطيع أن أصدق أن هناك من يحب
كما تحبها أنت، بل لا أجد من وصفك للحب مبرراً كافياً لما
تشعر به تجاهها وخاصة وأنها لا تستحق حبك.

- قلت: أتغارين منها؟

- قالت: أغار؟! ممن؟! ألا تعلم أنه لا يهمني أن تحبني
كما تحبها ... فأنت تعلم أنني أحصل على ما أريد وقتما أريد
... وما أزعجني أمراً في حياتي إلا ونسيته في دنيا الأحلام،
وما أردت شيئاً إلا وأخذته في دنيا الأمان ... إنني فقط أريد
لك امرأة ينبوع حنان وليست واحدة بركان من نار ... أريد
لك امرأة حرارتها تدفيء وليست لهيباً يحرق ... أريد لك
واحدة لها تعيش وليس بها تعيش ... هذا هو غاية الأمر.

- قلت: أراكِ تعرفين الكثير عن الحب وأنت التي تتدعين
أنك لا تفقهين فيه قولاً ولا فعلاً!

- قالت: دعك من كل ذلك وأفصح لي عما يدور في
خلدك.

- قلت: كنت لا أنوي أن اتذكر ما ينكيء جرحاً خيلاً إليّ
أنه اندمل ... ولكنني مازلت اتذكرها وكأنها طيفاً يدور في
رأسي أينما ذهبت، ومن المؤكد أنني لن أستطيع أن انسأها...
وكيف انسأها وهي حب حياتي كلها ... لا أستطيع أن أرى
وقتاً قد مر منذ عرفتها لا اتذكره فيها ... بدأ حبي لها حينما
توفي والدي... كنت وقتذاك في الثانوية وكانت هي تقطن في
المنزل المقابل لنا ... كنا نقطن سوياً منذ كنا صغار، ولم أكن
اعيها انتباهاً ولا إعجاباً، بل لم يكن أحد يرى فيها جمالاً ولا
أنوثة ... فلم يكن جماها من النوع الذي يثير في نفسك الحب
والرغبة... إنها ذلك النوع من النساء الذي لا يبهرك منه بريق
ولا جمال ... كان جماها هادئاً ناعماً، جمالاً لم انتبه إليه إلا حينما
جاءت لتعذيني وتتمنى لي طول البقاء ... رأيت في وجهها

الأبيض الهادئ راحة لم اعتدها منذ زمن، وسمعت من كلماتها
وصوتها الرقيق جبل من الحنان يخترق قلبي ... ترى بأية
أسلحة تصرع القلوب وتأسر الأرواح.. وقد أسرته
بهدوئها، وقناعتها ورقتها؟! !! احببتها حباً ما بعده حب ...
ومع ذلك لم استطع أن اتفوه بكلمة، وأنا الذي يستطيع أن
يقرب كل ما شط وينال كل ما نأى.

أحسست وأنا بجانبها كأنها لوحة بيضاء نقية طاهرة قد
محت كل سوء في حياتي. حبي لها قد طهر نفسي من الدنيا،
وخلصها من كل الشوائب. صحيح، لم أكن انسانا كثير
الخطأ، أو كثير الذنوب ... كنت انسانا عادياً كبقية البشر ...
ولكنني كنت كلما أنظر إليها اشعر أنني انظر إلى ملاك طاهر
ولا أريد أن الوته حتى ولو بكلمة! كنت دائماً ما أسائل
نفسي:

- ترى إلى متى سأنتظر هكذا دون أن أفصح لها بما يدور
في خلدي؟ لا أعرف ... وظللت على هذا المنوال ... وكان
كلما هفا القلب إليها علته بحلو الأمانى ..

- إنني أكاد أجن ... إنها لا تشعر بك.

- قلت: أعلم ذلك ... لقد ظللت أحبها حتى علمت ذات يوم أنها تزوجت ... صدمني الخبر واعتمل الحزن في نفسي ... ولا تقولي لي أن الفرصة كانت سانحة أمامك وأنتي المخطئ لأنني لم أنتهزها! فكما قلت لك أنني لم أجرؤ قط على أن أفصح لها عن حبي ... أنت لا تدركين كم كان للخبر أثراً قوياً في نفسي ... أردت أن أضرب الحائط بيدي فأحطمه تحطياً ... أأقتلها؟! وما ذنبها وهي لا تعرف شيئاً؟ أأقتل نفسي؟ لم أقتل نفسي ليس لأنني على علم بأمور ديني، وعلى وعي كامل بأن الانتحار جرم كبير واثم عظيم، ولكن لأنني لا أريد أن أحرم نفسي من رؤيتها والتمتع بالنظر إليها. ماذا أفعل؟ أي هراء هذا الذي أفعل؟! أحب امرأة دون أن أخبرها، ولأي سبب؟ لا شيء إلا لأنني أشعر أنني اتضاؤل بجانبها من شدة نقائها وطهارتها ... إنه لا يعدو أن يكون سبباً لا يصدقه مخبول حتى ... ولكن هذا هو ما أفكر فيه حقاً!!

- قالت: ولكنك لست بهذا السوء ... صحيح أنك ارتكبت الكثير من الذنوب ... لا أنكر أنك شربت الخمر، وسلبت الأموال ... و ... و ... إلى آخر ذلك من فعل السوء ... ولكنك لست إنساناً شريراً أثماً إلى هذا الحد الذي تصف به نفسك ... يكفي أن لك قلب يشعر بالندم ... ولست أرى مدعاة لما تعذب به نفسك ... لا تندم على ما فعلته ... ما قلته كان يجب أن يقال منذ زمن.

- قلت: لا يهم ذلك الآن ... المهم لقد تعرفت إلى زوجها وإليها ... وتقاربنا حتى أصبحت صديق العائلة وطبيبتها أيضاً. كنت أحب زوجها جداً، فقد كان الرجل كريم النفس، طيب القلب، ملء نفسه الإيثار، وملء روحه النقاء. ورأيت أمامي حبهما يزيد يوماً بعد الآخر ... ولا أنكر أن كلاهما يستحق ذلك ... ولا أظنهما مستطيعين إلا أن يكونا كذلك. وزادت نفساهما رضا على رضا ... ولكنني ومع حبي الشديد له، كنت أكره أن أراه قد أخذ مني حبيبة عمري ... ومع كل ذلك كنت حينما أفكر بعقلي أكثر أجد أنه لا طائل من هذا

التفكير فأعود إلى حياتي المملة الوحيدة وأتمنى لهما السعادة ...
ظلت حياتهما الزوجية تجري كزورق يسير في رفق وهدوء لا
رياح تعصف به ... حتى ذات يوم وجدت جرس التليفون
يرن ورفعت الساعة لأسمع صوتها الرقيق الهاديء قد تحول
إلى صوت متهدج متقطع يشوبه الخوف والدموع لتقول لي أن
زوجها قد مات ... ومضت برهة وأنا في صدمة فاغراً فاهي
عجباً، والعرق يقطر من جبينني ... تقلصت شفتاي ... لم
استطع أن أقول كلمة ... وحينما أفقت من الصدمة ومن
الحزن على صديقي، حدثتني نفسي: تُرى أأكون القدر كريماً
معي إلى هذا الحد؟ أأمنحني الحياة فرصة للسعادة؟! ولكن ما
هذا الذي أفكر فيه ... إنني لاشك إنساناً بلا قلب ... كيف
أفكر بهذه الطريقة ... تُرى هل كنت شريراً بالسليقة إلى هذا
الحد؟

- قالت: لا أرى من نفسك إلا كل حب جميل، وقلب
يعشق إلى حد لا يتصوره أي عقل، قلب كأنه ينبع يتدفق من

الجنة أو كأنه نور قمر في ليل هاديء يهدي المحبين وينير طريقهم... ولا آراك مخطئاً فيما فعلت.

- قلت: نعم لقد كنت أحب، ويخيل إلى أن من يحب قد يفعل أي شيء حتى يحظى بإبتسامة ممن يحب، أو حتى أقل ما يجب أن يشعر به الطرف الآخر. ذهبت إلى زيارتها وتعزيتها بعد فترة من وفاته. لم استطع أن أمنع نفسي من الإغداق عليها بالحنان والحب والشفقة في ذلك الوقت ... فقد صعب على أن أراها بهذا الحزن ... أردت أن أخرجها من هذا الحزن العميق، فإني أخشى على قلبها الرقيق أن يتأثر بهذه الأحداث المريرة ... وحتى وإن استطاع قلبي أن يخفي حبه، لم تستطع عيناى... فحزني عليها قد جعل الدموع تترقرق من عيني وأنا واقف أعزيتها ... أحسست بضيق ينتزع قلبي من مكانه ... لم أكن أريد أن أظهر حبي لها إلى هذه الدرجة ولكنني لدهشتي وجدتها قد ربتت على كتفي وقالت:

- أعلم كم تحبني وأعلم أيضاً كم كنت تحب زوجي ... لم
أر في حياتي في مثل وفائك وحبك لنا. لا أعرف ماذا كنت
سأفعل لو لم تكن بجانبني ...

ترى هل كانت تعني ما تقوله، أم أنها مجرد كلمات خلقها
لنا الموقف. حينما سمعت كلماتها، زاد حبها في قلبي، وعصف
بي التفكير أن أصرح لها بحبي الدفين، ولكنه لم يطل. فكيف
أقول لها أنني أحبك كل هذا الوقت، ومع ذلك حينما نظرت
إليها... إلى عينيها الهادئتين... وإلى وجهها البريء لم استطع
إلا أن أصرح لها بحبي... أخيراً اعترفت لها بكل شيء... كل
شيء... وبعدها رفعت رأسي إليها... ونظرت إلى عينيها
لأجدها حزينة، دامعة. تملكني يأس جارف وضيق مستبد...
يا ليتني لم أصرح لها بشيء... إنها ما زالت تحب زوجها...
لابد وأنني أخطأت في تفسير كلماتها... لقد ذكرتها به،
وبحياتها معه... استأذنتها وخرجت.

كنت أعتقد أنها قد تستطيع أن تحبني وكنت أرى فيها
شمساً ستشرق لتعوضني خيراً من الشمس الغاربة...

ولكنني أدركت كم كنت مخطئاً... تُرى ماذا يمكن أن تقول
عني بعد الآن؟ أحسست أن قلبي يتمزق وبأن نفسي تكاد
تخرج مني لتقول:

- لقد قلت لك مراراً وتكراراً منذ بدأت تحكي قصتك
أنه لا فائدة من كل ذلك... لا تندم على شيء فعلته... لا
أرى منك إلا نفساً رفيعة وإحساساً مرهفاً وحباً فياضاً.. ولو
كنت مكانها لكنت تمنيت أن أكون زوجتك وحييتك... فلن
أجد متى حييت انساناً يحبني كل هذا الحب..

تركت حديثي مع نفسي ونظرت إلى بحر الاسكندرية
الذي كانت الشمس قد بدأت تشرق عليه فأنارته، ولمعت
صفحة المياه الأزرق الرجراج وتفتحت الأزهار وبدأت
أسمع زقزقة الطيور من حولي... ثم سمعت ساعي البريد
ينادي... ناولني خطابي من النافذة لأجده منها... إنه من
حييتي... يالا المفاجأة! فتحتة... قرأته ثم طويته... تنفست
نفساً عميقاً أخذت به أجمل نسيم بعثته لي الأشجار وأرسله لي
البحر... لا أصدق أنها وافقت على الزواج بي... لقد قالت

لي كيف أنها لا تصدق أن هناك إنساناً في هذه الدنيا قد يحبها كل هذا الحب، واكدت لي أنها حينما سمعت مني أنني أحبها كل هذا الحب، فاضت عينيها بالدموع من شدة الوفاء والصدق اللذان أحست بهما معي. لقد أحزنها عدم شعورها بي وتقديرها لحبي ... يقولون شدة الحب تولد الحب... وأنا أرى أن حبي لها قد خلق لي في قلبها مكاناً، ولا أراني إلا سعيداً، راضياً وقانعاً بمكاني هذا حتى وإن كان صغيراً... تُرى يا نفسي هل يمكن أن تكون صادقة في حبها هذه المرة كما كانت صادقة ونقية في كل شيء؟

- قالت نفسي: ما أعذب الحب والوفاء! ... من العسير ألا تتحول الحياة إلى جنة إذا وجدت امرأة بهذا النقاء ورجل بهذا الحب والصدق!

أمنية واحدة تكفي...!!

"أيها القدر... لا أظنك قادراً على السخرية مني للمرة الثالثة... سأتي إليك يا حبيبتى... إن كنا قد افترقنا في الدنيا... فلا بد أن نجتمع في مكان آخر... أشعر أن روحي آتية!".

صعب عليّ تصديق ما رأيت صديقي عليه... ما روعه قط في حياته موت أحد يعرفه بقدر ما أحزنه موت هذه الفتاة. لا أنكر أنه قد أوصاني عليها بشدة بوصفي طبيعتها المختص بعلاجها، بل لا أنكر أيضاً شدة إلحاحه بعدم تركها للحظة، وبالسماح له بزيارتها في كل وقت وكل ساعة حتى في الأوقات الغير رسمية... ولكنني لازلت لا أصدق أنه من الممكن أن تنشئ علاقة حب في هذه الفترة الوجيزة من تعارفهما... إنها لا تعدو إلا أن تكون تلميذة لجأت إليه في

نهاية العام الرابع من دراستها ليشرح لها بعد الأمور المستعصية عليها... ولم تدم تلك الفترة إلا ثلاثة أسابيع فقط. وقد اعتبرت توصيته هذه بالاهتمام بها حين مرضت شهامة منه... فقد تعودت أن أراه رجلاً شهماً؛ يساعد الناس، كريماً ودوداً، مرهف الحس، رقيق المشاعر... وقد كنت أكره أن أرى الزمن قد هزمه وخيب آماله وهو الرجل الطموح الجسور، فما من شيء أوقفه عن بلوغ مطامحه. ولكن كلما أنظر إلى وجهه الآن أرى أنه من العسير عليه أن يقتنع أن ما حدث كان من الواقع في شيء!

لا زلت لا أستطيع أن اصدق ما آل إليه صديقي... لم يبق من جسده إلا حطاماً بالية وعظاماً نخرة... وحينما أجلس أمامه وأرى عينيه قد تورمتا من شدة الحزن، وانظر إلى حدقاته اللتان تترجحا في مقلتيه ولا يطبق عليهما الجفن أبداً، واتعجب لجسده الأهيف وهيكلة الضاوي... واتعجب أكثر كيف يسهر ليله حزيناً ملتاعاً وقد اثقل الحزن كاهله وانقض السهر ظهره... حينما أرى كل ذلك تزداد حيرتي ولا أكف عن هز رأسي تعجباً وتمرداً على حاله... واجدني في النهاية لا

أملك إلا أن الملم جسده المسجي على الأرض، فأريحه في
سريره واذهب لحالي...!

كنت شديد الرغبة في ان أسأله عن سر هذا الحزن العميق،
ولكنني كنت كلما أرى سحابة الهم التي كانت تعلو وجهه
اتراجع وأرجيء كلامي معه حتى يفيق مما هو فيه. و ذات
يوم ذهبت إليه كعادتي ودلفت إلى حديقة منزله وقد ران
عليها سكون يكاد يسمع فيه تنفس الورق بعد أن كان يسمع
فيها زقزقة الطيور وهمس النسيم... فتح لي الخادم باب الفيلا
ودخلت لأجده غارقاً في حزنه... وسمعت حشرة في
صوته من شدة الحزن حتى لكأنك تشعر أن حنجرته قد
سدت ... ورأيته قد رجع إلى الوراء واغمض عينيه وشعرت
أن يحاول أن يغلق ذهنه أيضاً، ولكن ذهنه كان قلقاً متيقظاً،
ومحلقاً في صورة لا يبغى عنها حولاً... وتتساقط الدمعة تلو
الأخرى من مقلتيه وهو مغمض العينين. فاض بي الكيل
وانفجرت فيه غاضباً:

"إلى متى ستظل على هذا المتوال؟ لقد أهملت جسدك حتى
صار كالهيكل الضاوي الذي لا يحتمل شيئاً، أو كأوراق

الشجر المترنحة التي سرعان ما تذروها الرياح... وما يزيد من تعجبي أن موتها قد روعك كما لم يروع خطيبها... إنها لا تنتمي إليك من قريب أو من بعيد... كما أنك لا تعرفها إلا منذ ثلاثة أسابيع فقط، ثم ماذا ترجو منها وهي لا تعرف حتى أنك تحبها؟؟؟!!"

فتح عينيه المغرورقتين بالدموع وقال:

- "إنه من العبث أن أروي لك ما يحزنني، فلا فائدة الآن... لقد ضاعت آمالي واحلامي، وانتهى كل شيء، وبدلاً من أن تزف لي، زفت للقبر وشيعت للموت والرماد".

- تزف إليك؟ كيف ذلك وهي فتاة مخطوبة. هل يضيرك أن تحكي لي كيف أحببتها في هذه الفترة؟ كيف بدأ الحب منذ ثلاثة أسابيع؟

- ثلاثة أسابيع؟!!!!!! إني أحبها منذ بدأت أعرف معنى الحب، منذ بدأت أدرك أن للحياة قيمة... كنا نسكن في الحي ذاته وكنت استيقظ كل صباح مبكراً لأراها... فقد كانت معتادة على الجلوس باكراً في شرفتها... كنا نتبادل الابتسامات، كنت مغرماً بها، بكل حركة تقوم بها، بكل كلمة

تنطقها، بعينها ... بنظراتها... وخيل إلي أنها أحبتني هي الأخرى.. وأقول خيل إلي، فلم أكن متأكداً من مشاعرها... فقد كنت وقتذاك شاباً فقيراً في الجامعة، لا يملك شيئاً سوى تفوقه وذكائه... أرادت الحياة أن ابتعد عنها... انتقلنا لمسكن آخر.. ولكنه كان انتقالاً سطحياً فقط... قلبها كان معي في كل مكان انتقل إليه وحبها كان يلزمني، وسحرها وطيفها كانا ظلي الذي أسير به.

أدركت أنه من العيب أن اتقدم إليها، فقد كان والدها من ذوي الشأن في البلد، وكانت عائلتها من أصل تركي... هؤلاء الذين يتمون إلى عائلات البشوات... وأنت تعرف كيف يفكر هؤلاء... ولذلك ما كنت أتمنى في حياتي قط سوى أن تظل خالية سنوات الجامعة حتى انهي دراستي وأعمل بالجامعة. حينها سأكون ذي شأن مرموق، وحتماً سيوافق أهلها على زواجنا...

ستقول لي ولم لم تفاتها وتصرح لها بحبك حتى تنتظرك وتضمن أنت بقائها خالية لك؟ ولكنني لم أشأ أن أفعل ذلك... وما أظن أحداً كان بلائمي إذا ما عرف شعوري...

لم أرد أن أبقئها بجانبني وأنا لا أضمن حياتي... كما أنه كان من الممكن أن أصرح لها بحبي حينما كنا صغار نلهو مع بعضنا... فما أظننا في طفولتنا نندم على هفواتنا واخطائنا... أما وقد كبرت وصرت شاباً يافعاً ناضجاً، وصارت هي فتاة ناضرة جميلة... وأصبح كلا منا يدرك قيمة الكلام والمشاعر، صار من العسير أن أصرح لها بحبي... ربما أيضاً كان خوفي من أن تصدمني بعدم حبها لي حائلاً يمنعني هو الآخر من أن أفضي بما في داخلي لها... فقد كان يرضيني أن أعيش على أمل أنها تحبني.. وكان يكفيني منها ابتسامتها ونظراتها المليئة بالحب والسعادة كلما مررت بنافذتها... ولم اكن اطمع في أكثر من ذلك... ولكن القدر قد بخل على هذه الأمنيات البسيطة أيضاً.

وبالفعل اتممت دراستي ونجحت بتفوق... ولكن القدر قد سخر مني أشد سخرية... ففي اليوم الذي عينت فيه معيداً بالكلية أسرع إلىها وبداخلي فرحة تشدو وقلب يرقص... لم أكن أعلم كيف سأعبر لها عن سعادي وكيف سأقول لها أنني عينت، وكان أقصى ما يهمني ويسعدني أنني سأقدم لها

في اليوم التالي. وضحك القدر وسخر مني حينما علمت أن
ذاك اليوم كان يوم قراءة فاتحتها! كم كان أليماً أن أسمع ذلك
بعد هذا الانتظار المريع... حزنت كثيراً ولكن كان ما يصبرني
هي تلك اللحظات التي كنا نبتسم فيها لبعضنا، وحسبي من
الحياة هذه الهنيئات الخاطفة... وظللت على هذا المنوال فترة
من الزمن أراها خلصة في الكلية وهي تدرس عندي، ولكنها
لا تحس بوجودي... فقد كنت أكره أن يمس نفسها حزن
مني أو أن يصيبها ضيق. حتى جاءت لي لأشرح لها بعض
الدروس... وقد كانت هذه بالنسبة لي فرصة قل أن يجود بها
الدهر... وكنت حينما أشرح لها الدرس اسرح في وجهها
الصافي الناضر، وفي شعرها الأسود المسترسل، وكأنه الليل
الجميل، وفي طيبتها المحفورة في قسماتها، وفي بسمتها الهادئة
الخنجولة المرتسمة على وجهها... وكانت هي بالنسبة لي
كالملكة المتوجة على العرش وقد أشرأت نحوها كل الأعناق
من فرط جمالها وحسنها... ثم أدرك فجأة أنها فتاة مخطوبة،
فأعود لتذكر الماضي الأليم، وذاك اليوم، يوم قراءة فاتحتها
وكان صرحه يقف بين أنقاض ذكرياتي شاخخاً مضيئاً.

أطرق صديقي رأسه إلى الأرض وكأن شباب الدنيا كله قد
خمد وانطفئ، فقلت له: - - وماذا بعد؟ أم أنك لا تستطيع
أن تكمل؟

قال:

- لا شيء جديد.. فما حدث بعدها هو أنها جاءت إلى ذات
يوم لتخبرني أنها نجحت بإمتياز، ثم سقطت فجأة على
الأرض... فزعت لأجدها كالجثة الهامدة على الأرض وكأن
النجوم قد انطفئ بريقها... وسرعان ما حملتها في سيارتي
واحضرتها إليك في خوف وفزع... ظللت معها كما رأيت أنت
أزورها في كل وقت وكل ساعة... لم أكن أريد أن أفارقها.

قلت له:

- ولكنني أخبرتك أنه لم يبق لها في الحياة سوى أيام قلائل،
ومع كل هذا وجدتك قد فزعت حينما علمت بوفاها...

- في الحقيقة لم أصدق أن حبيبتي ستموت! فلو تعلمت انت
سخرية القدر مني للمرة الثانية لكنت صدقت كلامي.

حينما كنت أزورها في هذا الوقت كنا نتحدث كثيراً وكانت
تحكي لي عن حياتها. وبالرغم أنني لم أرد قط أن أصارحها
بشيء مما في داخلي... إلا أنني لم أجد نفسي إلا مسترسلاً في
كلامي ومعبراً عن كل مشاعري... فحكيت لها كيف أن حبي
لها كان أشبه بالحب الأفلاطوني، السامي الرفيع... ولدهشتي
صرحت لي هي الأخرى بحبها لي، ثم ذكرت لي كيف أنها
يأست من أن أتقدم لخطبتها واعتقدت أنني لا أحبها.. ولهذا
وافقت على خطيبها... ساءني أن أسمع تلك الكلمات منها،
وأنا الذي أحب بكل كيانه وعقله وجسده، ولكن أسعدني
منها سؤالها حين قالت:

- أمازلت تريدني زوجة لك؟

- قلت لها: وما كان يهمني في الحياة غير ذلك.

- قالت: إذن سألغي خطبتي ونتزوج بعد أن أخرج من هنا..

خرجت من المشفى لا أصدق أن الدنيا قد ابتسمت لي
أخيراً، وقلت في نفسي أنه إذا كان القدر قد حرمني لذة
السنين الطوال، فلماذا لا استخلصها كلها من برائته في أيام
قصار... وقلت لنفسي أنه لربما تبتسم لي الحياة مرة أخرى

وتعطيها فرصة أكبر للحياة معي ... ودعتها وهي تمسك
بيدي وتضغط عليها مبتسمة وتؤكد لي أن والدتها في إنتظاري
للتقدم لخطبتها!

وما كدت أخطو خارج المشفى حتى جئتني مكالمتك التي
أكدت لي فيها أنها قد فارقت الحياة... يا أيها القدر العظيم!
أشكرك على سخريتك بي للمرة الثانية! لو كنت رجلاً لكنت
استطعت أن أفتك بك... ما هذه الحياة أفي لحظة يكون
أحباؤنا ملء أبصارنا وملء أسماعنا... وفي اللحظة التالية
يصبحون كأنهم عود كبريت قد انطفئ... أو رماداً تذروه
الرياح...؟؟!!

أبعد كل ذلك ما زلت تجد الحزن والصمت قليلاً عليها؟!
أطرقت برأسي للأرض في حزن وأسى، وصمتت، فلا أعتقد
أن شدة الحزن الذي أصابني قد يجعلني قادراً على الحديث...
خلد كل منا إلى النوم، وفي صباح اليوم التالي، وجدت
صديقي كما هو على كرسيه لا يتحرك، فتفقدته وادركت أنه
فارق الحياة من فرط الحزن عليها... ووجدت بجانبه رسالة

حينما قرأتها خيل إلى أنه وهو يكتبها قد أمسك بالقلم بين
ضلوعه لا بين أصابعه... يقول فيها:

"أيها القدر... لا أظنك قادراً على السخرية مني للمرة
الثالثة... سأتي إليك يا حبيبتى... إن كنا قد افترقنا في
الدنيا... فلا بد أن نجتمع في مكان آخر... أشعر أن روحي
آتية!".

نظرت إلى الرسالة في ذهول، ورأيت أن الصمت الآن أبلغ
من الكلام!

خطاب من الحب الذي مضى

عزيزي أي سخرية تلك التي تجعلني أكتب إليك بعدما سمعت خبر وفاتك... ولكنني أردتك أن تعلم حقيقة مشاعري بعد موتك ...

"من سخرية الحياة أن تفجع الإنسان بمصاب ويتمنى الإنسان حينئذ لو رفعت الحياة عنه هذا العبء، فإذا ما رفعته عنه، رفعته بطريقة يتمنى لو أبقت له ... ولكنني أدركت الآن أن ما حدث كان هو الأفضل لي!" ... كان هذا هو بداية خطاب من كانت حبيبته وخطيبته... بعدها رفع عينيه ونظر إلى النيل وقد طالت وقفته على كوبري قصر النيل ولكنه أدرك أن هناك بعض الدقائق التي فيها تتيح لنا الحياة أن نتأمل في صحائفنا .. و تأكد أن هذه الدقائق محفورة في هذا الخطاب. عاودت عينيه النظر إلى الخطاب ليكمل بقيته، فعاد يقرأ كلمات حبيبته التي تقول له فيها: " اكتب إليك خطابي وأنا جالسة في حديقتنا التي اعتدنا أن نجلس فيها سوياً، وصور الماضي مزدهمة تتلاحق أمام عيني... آه من جمال

الذكريات ولوعتها ومرارتها ... أتذكر يا حبيبي بداية لقائنا
... أتذكر كيف بدأ تعارفنا سريعًا، وكيف نما حبنا وأصبح كل
منا نصفًا متمم لصاحبه ... كنت بالنسبة لك كالشجرة
الرءوم التي طالما أحبتك وأحيتك بحنانها وعطفها ... كنت
لك القلب المضيء والنبضة التي تعيش بها ... كنت أنا البادئة
في كل شيء ؛ في حبي وفي عطفي وفي حناني وفي كل أفعالي ...
أتذكر كل شيء ولكن بالزمن ما مر بي ... كنت أنت بارعًا
في تجسيد الأحلام وفي رسم المستقبل والتخطيط له .. ولم لا
وأنت المخطط والمصمم لأعمالك جميعها؟ فهذا ما يمليه
عليك عملك. كنت أنت الرجل العقلاني المدبر وكنت أنا
الفتاة الرومانسية الرقيقة ... أين التناسب بيننا؟ لم يكن هناك
توافقًا بيننا ولكنني أقنعت نفسي بأننا كلانا نفسًا واحدة ...
ولكن مضى كل شيء وانتهى .. أهكذا يا حبيبي أضحي
هوانا غابرًا وأصبحنا نتحدث عن هوانا وكأنه شيء من
الذكريات!!؟

جلست على الزرع وأخرجت من حقيتي رسائلي وبدأت
أقرأها ... ويا لعجب ... أكنت واحدة أخرى غير نفسي؟
أعجب لنفسي كيف كنت أحبك كل هذا الحب! كنت قبل
ذلك الفتاة الناضجة العاقلة التي لا تعرف معنا للحب
والعواطف، أما معك فكنت أحبك وأحنو عليك كما تحنو
العصافير على أطفالها ... كنت قبل ذلك لا أقرأ عن الحب
ولا أقر ولا أعترف به ... وكنت معك المحبة التائهة في بحر
حبك وهواك. وهاهي رسائلي إليك ... أخرجتها ونشرتها،
ودعني أقرأ لك منها أحاديثي التي كتبتها في ليالي الحب ...
هذا الحب الذي مات فاتخذت له من قلبي قبرًا ، واسقيته من
دموعي حتى نمت زهور الذكرى على جوانبه ... هكذا كان
حبي لك ؛ كان يخفق قلبي لقلبك وتنفض النبضة للنبضة
وتهفو الروح للروح وتشتاق العين للعين ... أتذكر ذلك
اليوم الذي صرحت لي فيه بحبك ... كان ذلك اليوم خالداً
يوم قلت لي هامساً أنك تريد أن تسر إلي شيئاً... أحسست أن
قلبي يكاد يقفز ليخرج مني... تملكني الارتباك... وحينما

قلت انك تحبني... لم استطع أن انبس بينت شفة ... شعرت
وقتها أن هذه الكلمة تساوي عندي حياتي كلها ... آه يا أيها
القلب المسكين الذي تصدق كل ما يُقال لك ... أتذكر كيف
أن صديقاتي كانوا يُدهشون من أفعالي ... وكانوا يتعجبون
كيف لي وأنا الفتاة الجميلة المترنة أن تحب هذا الفتى الذي لا
يشبهها في شيء ... كانوا يشعرون أنني أجمل منك شكلاً
وروحاً ... أتذكر كيف أخذ الأناس ينصحونني ويقارنون
بيني وبينك رافعين مني إلى السماء خافضيك إلى الحضيض،
ولم يُخيل هؤلاء جميعاً أنني أنا وأنت نفساً واحدة، روحاً
واحدة وقلباً واحداً... إنهم لا يعرفون أنك وحدك كنت
الإنسان الذي استطاع أن يحرك كل عاطفة تجيش في صدري
دون أن يفعل شيئاً ... أنت وحدك كنت ما أحس وما أرى.
لم يكن يتخيل أحدٌ أنني كنت أرى صورتك أمامي في السقف
وأُتخيلها على الجدران أو حتى في النوافذ ... كنت أتعلق
بالحياة لمجرد وجودك فيها ... كل هذا يا حبيبي دون أن تفعل
شيئاً يشجعني على حبك ... فكما قلت لك كنت أنت

الخطيب الجاد العملي الذي لا يرى فائدةً من كلمات الحب والغزل، ولا يرى طائلاً وراء العشق وحوارات الحب والهوى ... ومع كل ذلك كنت قانعة راضية لكلمة واحدة تفضي بها إلى في كل سنة مرة، وكأنك كنت ترمي لي بما يفيض عن حاجتك ... كنت أتعجب لنفسي كيف أستطيع أن أتحمل كل هذا وأنا التي كنت من قبل لا أقبل ولا أسمع لأي فتى أن يقبل على التحدث معي ولكنني كنت أعلل كل ذلك بأنه الحب ... وفي الحب تذوب كل المعاني ... تذوب الكرامة وتتعالى لأن الأنفس تتعالى وتتسامى وترتقي لتصبح نفساً واحدة ...

وبعد كل ذلك رأيتك تنأى عني ... ها أنت الآن تطلق نفسك من إسارها الزائف برهة لأراك على حقيقتك ... بدأت أرى صورة الحبيب العاشق وصورة السعادة السرمدية تتضاءل أمام عيني، فأدركت أنني لا يجب أن انظر إلى الدنيا بعين الرضا الكليلة عن كل عيب ... صُدمت فيك بعدما عرفت أنك تستطيع أن تضحى بحبنا، بحياتنا معاً التي طالما

حلمنا بها... بقلبي الذي كان ينبض بك، غير عابئاً بما سينتج
عن ذلك من جرح لمشاعري وكل ذلك من أجل إرضاء
والديك، حتى وإن كانا مخطئين فيما يظنوه صحيحاً... أكان
كل ذلك كذباً؟ كيف أصبح كل شيء لديك ذا قيمة إلّاي؟
... حاولت أن أوهم نفسي أن ما حدث لم يكن سوى كابوس
خفيف وحلم مروع ولكن من العبث أن أخدع نفسي أكثر من
ذلك... وبدأ كل من حولي ينصحونني أن أتخلى بالصبر وأن
أحاول أن أفكر بعقلي حتى أستطيع مواجهة حياتي... ولكن
من أين أتى بالعقل وقد أضعت مني الصواب واطشت
العقل... أراك صامتاً مشدوهاً... ولكن في هذا السكون
المؤلم يتحدث قلبك وتفصح نفسك عما بداخلها... الضمير
يتكلم حينما نسكت... أمستريح أنت الآن بعدما تخلّيت
عني... أمدرّك أنت ما فعلته بي؟ لقد أعطيتني إحساساً
بالحب ويقيناً بالسعادة... كنت قبلك لا أعرف إذا ما كنت
سباحظي بالسعادة أم لا... كنت في حيرة مريرة وشك دائم
... لو أنني لم أوهب تلك اللحظات الخاطفة من اليقين... لو

أنني استمررت على ما كنت فيه من شك وحيرة، ثم حدث ما حدث لا استطعت أن أحتمل، أما أن أحظى بكل ما كنت أتمنى فأذوق حلاوة اليقين بالسعادة، ثم في اللحظة التالية تُسقطني من هذا البرج العالي، فذلك كان أكثر مما أحتمل!!!

عزيزي أي سخرية تلك التي تجعلني أكتب إليك بعدما سمعت خبر وفاتك ... ولكنني أردتك أن تعلم حقيقة مشاعري بعد موتك ... فبعد أن انتهت خطبتنا ... كنت شديدة الحزن ... ولم لا أكون أكثر صراحة فأقول أنني كنت شبه مدمرة ... قرأت مقولة تقول: "نحن على مسرح الحياة لا نملك الرفض، فما الامتثال وإما الخروج" ... نعم لم أكن أملك إلا أن أحاول أن أنسى حبي لك ... وبدأت بالفعل أتناساك ... وكنت أحاول ألا أوقف تلك الذكرى الهاجعة بالرغم من أن صرحها يقف في قلبي مضيئاً لا يريد أن ينطفئ أبداً ... حتى سمعت خبر وفاتك ... أتعلم فاجأتني مشاعري حينذاك .. كنت أتخيل أنني سأسمع في قلبي بكاءً ونواحاً.. لم أحزن ولم أفرح أيضاً ... أدركت ساعتها أنني

بدأت أستعيد نفسي ... بدأت أدرك أنني قد أستطيع أن أحيأ بدونك ... كنت أكثر وفاءً بالعهد وإقامةً على الود.. ولكنك أضعت حبي وودي وضحيت به دون أن تكلف نفسك عناء محاولة الحفاظ عليه، أو لتقل لم يكن يعينك في شيء أن تحافظ على مثل هذا الحب، فوجوده وعدمه سواء عندك... أما الآن وقد أفضيت بها في داخلي سأترك لك هذا الخطاب عند هذه الشجرة التي كنا نجتمع عندها سوياً... وأعلم أنك لن تستطع قراءته لأنك غادرت هذه الدنيا... ولكنني سعيدة لأنني سأترك الماضي وأرحل لأتركك تعيش أو تموت في سلام بعيداً عني، فلا وجود للحب في هذه الدنيا".

طوى الخطاب بعدما قرأه ورفع عينيه لينظر إلى النيل فبدت له الأنوار الساطعة على صفحة المياه من خلال دمع يترقق كأنها أشباح تراقص ... وعاد يهمس لنفسه : "أأعود إليها وأعتذر عن كل ما بدر مني... فهي لا تستحق ما فعلته بها؟؟ نعم... نعم سأعود وأرجوها أن تسامحني". طوى الورقة وغمسها في جيبه واعتدل ومشى خطوة تجاه سيارته،

ثم عاد من جديد وأخرج الخطاب من جيبه ونظر إليه في
حزن وأسى، هامسًا لنفسه في صوت خفيض ضعيف وكأنه
يحَدِّث الخطاب: "أعلم كم أذيتك يا حبيبي .. وأعلم أنني
لا استحق حبك ... غفر الله لمن اتهموني كذبًا بالموت ...
ولكنني بالفعل قد مُت في نظرك وفي نظري أيضًا... لا فائدة
من عودتي الآن..." ثم ألقى بالخطاب في النيل ... وعاد
سيره !!!

نفس في عالم آخر

"إن النفوس بيوت أصحابها، فإذا طرقتوها، فإطرقوها برفق!"
كثيرٌ منا يتمنى لو كان شخصاً آخر مخالفاً لما هو عليه، أو
يتمنى لو كانت له حياة أخرى غير تلك التي الحياة التي
يعيشها، أو أقل ما يجب أن يأمل أن يعيش في زمن آخر غير
زمنه الذي يحيا فيه وبه ...

ولكن لما هذا الاعتراض على حياتنا؟!!

ربما لأن كل شيء في هذه الحياة متعته بائدة، ولذته
مصيرها الفناء ... وأسوأ ما في الحياة أن ترى وراء مظهرها
الخلاب هذا باطناً أجوف ونفساً واهية ... وعلى هذا فما
حاجتنا إلى إنفاق أعمارنا في مكان داجي الظلام، أو في زمان
نعرف له نهاية حزينة. إننا نتمسك بحياة دون غيرها؛ لأن لنا
في هذه الحياة من نحبهم ويحبوننا ... ولكن إذا كنت تحيا حياة
بلا حب، حياة تبكيها كل حمامة نائحة، حياة فيها مآسي تشير

المدامع ... أو إذا كنت تحيا حياة كثيفة يلفها الحزن والملل والخوف، ويسكن أرجائها القلق والدمع، فلتدعو الله أن يدفع بك إلى ذاكرة الآخرين بالحب والحنان ... حينئذ يصفق قلبك ويهفو ويغني ويرقص طرباً إذا ذكره أحدهم ... أو لتحاول أن تحيا حياة أخرى كما فعلت صديقتي، ولكن كن حذراً؛ فحينما تطمح النفس إلى المزيد، وحينما يرضى الجسد أن يعيش في دنيا غير دنياء، فهو بلا شك طالبٌ أكثر مما يتخيله عقلك. إنه حينئذ يطلب المستحيل في دنيا يكاد الممكن يجد طريقه فيها ... هذا ما وصلت إليه بعدما سمعت قصة صديقتي .

في حلقة ليل دامس شديد السواد ... تكاثفت فيه السحب فحجبت كل الأنوار، وساد السكون المكان، فما عاد يسمع إلا حفيف الأشجار وصراخ الرياح، جلست في حجرتي على نور خافت وقد فتحت أبواب نافذتي على مصرعيها لأستنشق الهواء النقي ... جلست لأقرأ في كتابي بنهم وشوق علني أستطيع إنجائه في تلك الليلة، وإذا أسمع

بدقات متصارعة على الباب ... فزعت، لم أعود قط أن أتلقى زيارات في هذا الوقت المتأخر من الليل ... أسرع إلى الباب وفتحته لأجد صديقتي أمامي - شاحبة ضامرة، كأنها كومة من العظام لفت بطبقة رقيقة من الجلد وقد بدا السواد يلتف حول عينيها .

أجلستها على الكرسي المقابل للباب ... أردت أن أسألها عما بها، وعن سبب مجيئها، ولكنني وجدت منها لوعة وألم وتعب، ففضلت ألا أخاطبها إلا حينما تستريح ... جلبت لها كوباً من العصير وطلبت منها أن ترتاح حتى الصباح، قائلة في نفسي أنه لربما أستطاع منظر البحر في الصباح، وجمال الطبيعة وسحر الهواء أن يعيد لقلبها السكينة والهدوء والراحة... فتفضي حينئذ بما يدور في خلدها ...

في الصباح، بدت لي وكأنها هدأت واستعادت ضياء وجهها ... فجلسنا على شاطئ البحر ... ولكن لم تستطع زرقة البحر أو صحوة السماء أن تزيل تلك اللوعة الكامنة في قلبها... ولكنها اعتدلت ونظرت لي وقالت :

"لا أعرف ماذا يحدث لي؟ هل فقدت عقلي، وأصبحت
أهذي بأشياء لا يمكن أن تحدث أبداً؟ أم أنني أحيا عالمين
مختلفين؟ ... لا أعرف ... لا أعرف !!!

أصابني كلامها بالرجفة، فما أعتدت أبداً أن أرى
صديقتي بمثل هذه الحالة الغريبة، وهذه المشاعر المتناقضة ...
قلت لها :

- هوني على نفسك، واستريح و احكي لي ما حدث بتأن،
علني أستطيع تفهم الأمر ."

قالت :

- أعلم أنه من العبث أن أروي قصتي لأي شخص، فما
من أحد عاقل سيصدق حديثي هذا ... إنها أشبه
بقصص الأساطير ... ولكن النفس الإنسانية مليئة
بالأسرار والغموض !

قلت :

"لا داعي لكل هذا القلق، فما تعودت منك وأنتِ الفنانة الهادئة الرقيقة المتزنة التي تعبر عن كل المشاعر الإنسانية في لوحاتها أن تكون بمثل هذا الضعف ."

قالت: سأحكي لك، وأرجو أن تصدقيني.

بدأت كلامها فقالت :

كنت أذهب يومياً إلى الحديقة العامة التي تعودت الذهاب إليها منذ فترة كبيرة لأضع لوحاتي هناك وأبدأ في الرسم. وأنت كما تعلمين أنني حاملة رومانسية في لوحاتي وفي حياتي أيضاً. وبالرغم من كل ذلك، لم اصادف قط في حياتي تلك من استطاع أن يغير مجرى تلك الحياة، فيحيلها ويشقلبها، فأرى فيها الحياة الجديدة الرومانسية التي أتمناها. لذلك ما تمنيت شيئاً إلا وحصلت عليه في عالم الأماني، وما أزعجني أمر إلا ونسيت في دنيا الأحلام. هذه هي حياتي ولذلك كنت أجد في الرسم عزائي الوحيد، وسلوى قلبي، فما أحبيت أحداً وما انتظرت ان يحبني أحد، حتى كان اليوم الذي ذهبت

فيه إلى الحديقة كعادتي وبدأت أرسم. أثرتي الرسم، وسرحت
وشرد عقلي مع اللوحة وجمالها ... ثم وجدته في مكان آخر
غير الحديقة ... بل وجدته في دنيا أخرى غير دنياي ...
رأيت نفسي وقد جلست على إحدى الكراسي وأمامي لوحة
بيضاء في مرسوم في حي الزمالك ... وكأنني تعودت أن آتي
هذا المكان وأخترت كرسيي وجلست عليه ... كأنني معتادة
على ذلك ... جلست بكل إعتيادية وانهمكت في الرسم،
وحينما شعرت بالتعب رفعت عيني ويدي من اللوحة لتقع
عيني على رجل جالس في الجوار ... رأيت وتلاقت أعيننا ...
ظللنا ننظر لبعضنا وقتاً كبيراً ... لا أعرف قيمة للوقت ولا
حساباً ... فلم أكن أكثر ثبتي، ولم أكن أريد أن يشغلني
شيئاً غير التمتع بالنظر إلى عينيه ... لم يكن وسيماً ولكن جمال
روحه قد أضفى على وجهي وقلبي جمالاً لا يقارن بشيء آخر
سواه. لا أعرف ما حدث لي ... عقلي يحدثني بأن أتوقف عن
الحملقة هكذا، ولكن قلبي متعلق بنظراته لي ويشجعني على
الإستمرار عليها ... ماذا حدث لي ... لم أكن بمثل تلك المرأة

قط ... لم أنظر إلى رجل في حياتي هكذا ... لا أعرف ماذا يحدث لقلبي وقد بدأت نبضاته تتسارع، وأحسست أنه يرقص طرباً وفرحاً؛ وكأن في داخلي فرقة تغني وتشدو وترقص! ابتسم، وكأن ابتسامته قد أرسلت لي مع الريح نسيماً قد خلع على الحجرة رونقاً وملاًها روعة وضياءً. إنني في عالم آخر .. لا بد وأني أحياء عالماً رومانسياً خلافاً ... عالماً غير عالمي ... أيكون هذا هو الحب؟ !

ذهبت بعدها إلى منزلي في منطقة وسط البلد ... قاطعتها
قائلة: "ولكنك لا تقطين في وسط البلد؟!"

قالت: "أعلم، ولكنني خُيلَ إلى أنني أقطن هناك، أو لنقل أنني في حياتي الأخرى كنت أقطن في تلك المنطقة!"

فغرت فاهي عجباً، واشفقت عليها ... أحست هي بما يدور في رأسي، فقاطعت أفكاري قائلة:

"انتظري حتى أكمل ..."

وبدأت تكمل لتقول أنها ذهبت إلى منزلها في منطقة وسط
البلد وظلت على هذا الحال مدة أسبوعين قائلة: في الصباح
كنت أذهب للمرسم، وفي المساء أعود إلى بيتي في وسط
البلد، حتى كنت ذات ليلة في بيتي، جالسة أمام نافذتي، أتأمل
جمال الأشجار ... فرأيت المنظر قد تحول أمامي، ووجدت
نفسي قد عدت إلى الحديقة وأمامي لوحاتي ... عدت إلى
حياتي الأولى من جديد ... تعجبت لما حدث، وقلت في نفسي
أن ما حدث لا بد وأن يكون حلمًا، ولا يعدو أكثر من ذلك.
ولكن مع الأيام أدركت أن ما يحدث حقيقة واقعة وليست
متخيلة ... إنها حياة أخرى!! إنني أعيش حياتين مختلفتين ...
وما يجعل ذلك يقيناً أنني حينما أعود للحياة الأخرى، أجد
نفسي عائدة مستكملة للأحداث التي توقفت عندها في آخر
مرة .. لا يمكن أن يكون ذلك وهماً!

استوقفتها مرة ثانية وقلت لها: "إنني لا أستطيع أن
أصدق ما تقولين؟ وحتى وإن صدقت ذلك، فماذا يضريك أن
تحبي هذين العالمين؟ !

قالت: "إنني بالفعل كنت قد استسلمت لحيااتي تلك؛ لأنني أحببت الفتى الرسام الذي التقيته في حياتي الثانية وأحبني هو الآخر... وعشنا معاً قصة حب لو كتبت بالأقلام لفرغت الأحبار ولنفدت الأوراق... وحدثتني نفسي انه ما دمت لا أجد الحب في حياتي الأولى، فلما لا أحياء الحياة الثانية التي التقيت فيها برفيق عمري وسلو نفسي. ولم أعتقد قط أن نفسي ستطمح إلى ما هو أكثر بذلك، أو لنقل أنني لم أمنيها بأكثر من ذلك، فما كنت أتمنى أكثر من أن أجد من يحبني وأحبه... ظللت على هذا المنوال حتى بت أنتظر اليوم الذي أسافر فيه إلى عالمي الآخر، بل وبت أكره اللحظة التي أعود فيها لعالمي الأول، فليس فيه ما يجعلني أتمسك به... فما أجهل العالم لو بقيت نائمة إلى الأبد. حتى جاء اليوم الذي علمت فيه أن حبيبي - الذي اعتبرته نفسي، والذي اعتقدت أن حبه لي لا يساوي كنوز العالم - يحب فتاة أخرى غيري. لم أصدق ما سمعت، وحينما صارحته، لم يبد عليه الانزعاج، بل أكد لي أن كل ما سمعته صحيح، وأن هذه هي

حياته؛ فهو كالنحلة، يجب دائماً التنقل من زهرة إلى أخرى...
قلت له أن ما بيننا ليس بالشيء الهين لتقضي عليه بهذه
السهولة ... صحيح أنه لم يلفظ بكلمة "أحبك" ... ولكن
الحب هو الكلمة الوحيدة التي لا تُقال ... وحينما نحب حباً
عميقاً لا نستطيع أن نلفظها... أألسأ أنت من كنت تردد
كلمات نزار وتقول: "إن كلمائنا في الحب تقتل حبنا، إن
الحروف تموت حينما تُقال" ... كلنا نحب ولكن لا نقول،
ونبكي ولكن لا أحد يرى دموعنا إن الحب لا يطلب، إذ أن
الحب هبه، ومشاعر جميلة تخرق القلبين وتكفي حينئذ
النظرات لتعبر عن كل شيء... أأترى أن تقتل كل هذه
الأشياء؟ فضحك ملء شذقيه وقال :

"كل شيء يمكن أن تذروه الرياح إذا أردنا نحن ذلك ."

عدت بعدها إلى منزلي... لم يعد هناك فائدة من كلامي ...
رجعت إلى حياتي الأولى في تلك اللحظة لأرى نفسي في
الحديقة ... للملأ لوحاتي وعدت إلى منزلي حزينة ... كنت
أعتقد أنه ذكي الفؤاد، شاعري النفس، صادق الحس ...

كنت أعبد النسمة التي تمر فتختلط بأنفاسه، أعبد اللوحات
التي كان يلمسها بيديه، أعبد الشمس التي تدفئه ... أكان كل
ذلك كذباً؟ !

ظلمت طوال اليوم أبكي حرقاً وأسفاً... قلبي قد تعلق
بالحياة الثانية، فهي تذكره بأيام حلوة يانعة ... ترى أبعد ما
حكيت لك مازلت لا تصدقين ... إنني على يقين مما أقول!
أرجوك ساعديني، فلن أجد غيرك أقدر على منحي جميل
العزاء .

سبحت بعيني إلى السماء المزدانة بالنجوم، فقد دجى الليل
ونحن مازلنا على الشاطئ ... أشفقت عليها ... أردت أن
أدخلها المنزل حتى لا يصيبها الأعياء، فقد كانت الرياح
عاصفة، فضحكت وقالت: " أنا الغريق فما خوفي من البلل
... إنني لم أعد آبه للحياة ولا للموت .. كلاهما عندي سواء
الآن " ... ترى أيمكن أن يكون ما روته حقيقة؟! نظرت إليها
وقلت: اعلمي يا حبيبتي أن الإنسان كثيراً ما يهرب من حياته
التعيسة إلى حياة أخرى تستطيع فيها نفسه أن تتمنى وتطمح

وتحقق امانيتها ... حتى وإن كنتِ فعلاً تعيشين عالين،
فتأكدي أنك لم تخسري الكثير، فلقد أبديت لي وله من جمال
نفسك وعذوبة روحك ما تضاءلت بجواره فتنة وجهك ...
أنا على يقين أنه هو الخاسر، فإن كنتِ قد خسرت نصف
حياتك، فقد خسر هو حياته كلها؛ لأنه لن يجد في حياته قط
روحاً نقية بريئة، وقلبا كريما صادقاً مثل قلبك .

اصطحبتها إلى منزلها، واطمأن قلبي عليها حينما رأيته
قد هدأت ونامت، وتركتها لتستريح. وفي الصباح ذهبت
إليها لأطمئن عليها، فوجدت حشداً قد التف حول منزلها،
وعرفت من الحارس أنهم سمعوا في الصباح صيحة عالية
ورأوا صديقتي بعدها ملقاة على الأرض بجانب العمارة ...
إنها انتحرت ولا يعلم أحد سر ذلك ... إلا أنا !!!!

تذكرت كلامها حينما قالت: " أنا الغريق فما خوفي من
البلل ... إنني لم أعد أبه للحياة ولا للموت .. كلاهما عندي
سواء الآن " ... إننا لا نخشى الموت، فكل منا إلى الفناء
مصيره، ولكن ما يدمي قلبي أنني لم أصدقها ... وعصف بي

التفكير؛ ترى هل انتحرت في عالمها الآخر؟ ... هل قابلته
مرة أخرى وتحدثا وكان لكلامه أثراً حزيناً فإنتحرت لذلك
السبب؟

يُقال: "عظمة النفس الإنسانية في قدرتها على الاعتدال،
لا في قدرتها على التجاوز" ...

طاف بذهني المكدود وأنا واقفة أمام منزلها الكثير من
المشاهد التي سردها لي ... ظللت واقفة مشدوهة، غير
مصدقة حتى خلا الطريق من المارة، وظللت وحيدة في
الشارع لا أسمع شيئاً إلا حفيف الأشجار وخشخشتها،
ولربما همسات بعثها لي روحها مع الرياح تقول لي: "
أتصدقين الآن؟" ...

فأجيب: "ولم لا؟ فالنفس في عالم الأمان يمكن أن تطمح
إلى أكثر من ذلك !!"

الكاتبة في سطور

سارة الجزائر

- كاتبة مصرية من مواليد القاهرة ١٩٨٣ ..
- تخرجت من جامعة عين شمس، كلية الألسن، قسم اللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٥
- عملت الكاتبة كمحاضر لغة إنجليزية في عدة معاهد وجامعات وآخرها كانت جامعة المستقبل.
- تقوم الكاتبة حاليا بعمل ماجستير الدراسات العليا في التخصص المسرحي عن الأقليات في المجتمع الأمريكي وخاصة المكسيكيات اللاتي يعانين من اضطهاد عرقي وجنسي وطبقي في الوقت نفسه في أمريكا.
- لها العديد من دواوين الشعر وبعض اللوحات التي لم تُصدر بعد...
- بدأت في كتابة أول مجموعة قصصية : "لحظات خاطفة" في شتاء ٢٠٠٥ ونُشرت عام ٢٠٠٦.

الفهرس

٣	إهداء
٥	قطار الذكريات
١٩	لقاء بين المقابر
٣٠	بيني وبينه
٣٩	الصورة المتحركة
٤٩'	عندما يحب الرجل
٦١	أمنية واحدة تكفي
٧٢	خطاب من الحب الذي مضى
٨١	نفس في عالم آخر

رقم الايداع
٢٠١٣ / ٢٢١٠٦

الترقيم الدولي : 978-977-209-247-5 I.S.B.N.